طموح فقير

الكتاب: طموح فقير

المؤلف: سعد السعودي

الغلاف: يوسف السيد

تنسيق داخلي: عبدالعليم مِنا

الطبعة الأولى: ٢٠٢١

رقم الإيداع: ٢٠٢١ -٥٨١٩٢

الترقيم الدولي: ٩١٦ - ٨٠٧١ - ٢٨٧١ - ٠١٧ - ٤

المدير العام: مروة المصري

التليفون: 01100528522

لمراسلة الدار: darnebogh@gmail.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر الكاتب ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار.

جميع الحقوق محفوظة ©

نبوغ للنشر والتوزيع

طموح فقير

رواية

سعد السعودي.

دار نبـــوغ للنشر والتوزيع

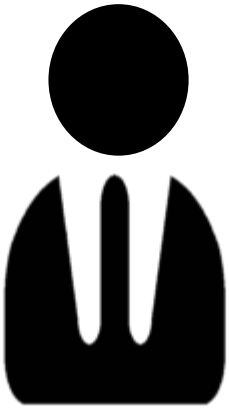

الإهداء . . .

صباحُ الخيرِ لأولئك الذين يتخبطونَ بين الأفئدةِ باحثين عن قلوبٍ تليق بهم، الذين أُنهِكت أرواحهم من كثرةِ الخذلان، إلى كل من أوقعتهمُ الأقدار على غير شاكلتهم ،إلى من قدموا كل ما يمتلكونَ من وفاءٍ ولم يعهدوا سِوى الخذلان، من قطعوا أميالاً بدروب شاقةٍ لم يتمنوها يوماً ما، إلى من خاضوا معاركَ ضد الحمقى المحبطينَ ولا يبالونَ إلا بالوصولِ واجتيازِ الصعاب وما زالوا يتشبثونَ بأملِ الوصول إلى أحلامهم، "أما أولئكَ الذين تسببوا في تلكَ الندباتِ بدواخلكم فلا صباحَ لهم ولا مساء".

سعد السعودي

****

تمهيد...

_ لا شيء مجانيٌ في هذه الحياة، فعندما تمنحك الحياة شيئاً ما، فهذا لا يعني أنها تحبك وتؤثرك على الجميع، لكنه يعني وببساطة متناهية أنها تعقد معك صفقةً و سيكون ثمة ثمناً لك شيء.

_ فالأرض التي هبط إليها آدم وزوجه منذ قديم الأزل قد نزلا عليها عقابا لأنهما اتبعا الشيطان وعصيا الله ،عندما أكلا من الشجرة المحرمة فكان الجزاء من جنس العمل وهبطا بذلك إلى الأرض.

_ هنا يكمن فرق شاسع بل فروق لا حصر لها فإذا نظرت إلى المعيشة التي كان يقطنها آدم وسيقطنها بنيه من بعده، فأهلاً بك في جنةٍ يستحيل وصفها من نعيمٍ وخيراتٍ وسكينةٍ وسلام، فلا تسمع عن حروب استنزافية وخرابٍ ودمار للشعوب، فلم يكن للفكر الصهيوني وجود ولا تجد قدر ذرةٍ واحدة من التعب والجُرح.

_ لا تجد قلوباً نزفت دماً من عشقٍ كان بمثابة كل شيء، قلوباً غرقت في أوهام الحب حتى استفاقت على صدمة القدر ،في الجنة لا شيء من كل هذا أبداً.

_ لكن شاءت القدرة الإلهية بهبوط آدم وزوجه إلى الأرض والهدف الأوحد تعميرها، وتوالت الرسالات والشرائع السماوية لإنقاذ البشرية من الجهل والتخلف إلى نور الحق والرشاد، فكان لكل إنسان عمله بمحض إرادته، ولم يكن هناك اختلاف بين الرسالات السابقة على مختلف العصور والأزمان بأن هناك طريقان، طريق الخير ويندرج تحته أمور عدة كالمودة والرحمة ومساعدة المحتاج والدفاع عن العرض والوطن والدين.. الخ، وطريق الشر- ويندرج تحته أمور لا حصر- لها كسفك الدماء وهتك الأعراض وانتشار البغضاء والتخلف.

_ وإلى الآن ونحن في أوائل القرن الحادي والعشرين ومع أحدث وسائل التعلم والتواصل الاجتماعي الا انه لا تزال مستوطنةً بداخلنا بعضاً من عادات الجاهلية والتعصب والفهم الخاطئ لبعض الأمور، فالرجل ليس محور الكون وليس بالهدف الأوحد الذي إن لم تحصل عليه المرأة وبالأخص في مرحلة الصغر فإنها امرأة فاشلة، بل الأشد فشلاً من آمن

بمقولة (ظل راجل ولا ظل حائط) هذه نبرر بها فشلنا في منح فتياتنا الأمان الكافي لاختيارهن الشريك المناسب، فليذهب الرجل إلى الجحيم إن لم يكن موطناً وأماناً وسنداً وأباً ثانياً، فالعانس كما يسمونها ما هي إلا فتاة يخبئ لها القدر مفاجآت جميلة، ولكن بعد أن يعلمها الصبر والقناعة أولاً، ليس بالضرورة أن تقتصر تلك المفاجآت على الزواج، بل تكمن أحياناً في سفر أو منصب أو جاه أو ربما زواج، فالزواج ليس صفقة تبادلية بين رجل وامرأة، نحن لا ننكر قيمة الزواج وأهميته خاصةً في عصر التبرج والحرية التي تحولت إلى فوضى، ولكن أولئك الذين لم يتزوجوا بعد، ليسوا أناساً فاشلين كما يراهم بعض الحمقى.

_ ما العيب في خروج فتياتكم للنزهة ما دمن يرتدين ملابس محتشمة؟ أليس من حقهن التمتع بالأماكن العامة؟ أم أنها مكتوب عليها للشباب فقط؟ ما العيب في أسماء زوجاتكم حتى تنادوهن بأسماء أبنائهن هل بأسمائهن عورة؟

إلى جانب العديد من الأمور التي نسئ فهمها فنعطي لأنفسنا الحق في الحكم على الآخرين بما لا يليق بالإنسانية أبداً، فأنا لا أرى كل ذلك إلا عقم في الفكر لمجتمع مريض نفسي، نسأل الله العفو.

الفصل الأول

كانتِ القرية الصغيرة تمتد منازلها على شاطئي النهر مما يعطيها منظرًا نضرًا خلابًا، يعيش سكانها في استقرار وأمان، تسود المحبة والمودة فيما بينهم، قطنوا تلك المنازل الصغيرة المتشابهة، وظلوا يتوارثونها جيلًا تلو الآخر بين مسلمٍ وقبطي، فهم رغم اختلاف الديانات إلا أنهم دائمًا ما يكونون على قلبِ رجلٍ واحد.

_ كان معظم الرجال في القرية يعملون بالزراعة، خاصةً زراعة القطن، الذي اشتهرت به القرية شهرةً واسعة إلى جانب تربية الماشية، فكان للقطن الدور الرئيسي وكان يعد رأس مالهم الأوحد والذي يعتمدون عليه في أمور معيشتهم فيقترضونَ البضائع والطعام والملابس إلي حين حصادهِ وبيعهِ للشوناتِ الزراعية، أما النساء فهنَّ ربات منازل يقمنَّ بأعمالها على أحسن ما يرام، ولا يبرحونها إلا نادرًا لضرورة ما، كالذهاب إلى السوق الذي يقع في منتصف القرية من الناحية القبلية لها، فيقمن البعض ببيع ما ينتجنَّهُ من زبدٍ وجبن، وبيع بعض الخضراوات لمساندة أزواجهنَّ في أمور المعيشة، ولشراء الطعام والمؤن اللازمة. اشتهرت تلك القرية بجمالها ونظافة شوارعها، فقد غُرست على حافاتها أشجار في غاية الجمال، إلى جانب أعمدتها النارية المضيئة ليلًا على ضفتي النهر تنعكس أضوائها على

مياهِ فكأنها أشبه بجزيرةٍ عائمة، لكن ما كان ينقصُ تلك القرية هو ما كان ينقص غيرها من القرى؛ وهو الانخفاض الكبير في المستوى التعليمي وانتشار الخرافات والجهل، فلم يكن هناك مكان لتلقي العلوم وتعليمها سوى كُتَّاب (الشيخ سيد)؛ حيث هو المكان الوحيد لتعليم القراءة والكتابة، لكن لم يكن يذهب إليه سوى القليلون؛ نظرًا لقلة المال مع كثرة الإنجاب، فكان المفهوم الأوحد للمعيشة لديهم هو أن يذهب الولد إلى الحقل لمساعدة والده، بينما تبقى الفتاة في المنزل لمعاونة أمها على القيام بأعماله، ويصعب عليها الخروج منه مهما كان الأمر.

لم يكن في القرية بأكملها رجلًا أكثر ثراءً من (العم ثابت)؛ تاجرٌ قبطي حسن الخلق، لكنهُ تعسرَ من كثرةِ إقراض البضائع لأهل بلدته دون مقابل مُجزي، وكان قد تحمل في حياته الكثير؛ فعندما ماتت زوجته لارتفاع حرارتها إثر إصابتها بحمى شديدة، ولم يكن هناك طبيب كي يعالجها في ذلك الوقت، لم يكن يوجد سوى حلاق القرية، الذي ظل يزعم في أمر علاجها ترهات لا فائدة منها، أدت إلى وفاتها، إلى جانب وفاة العديد غيرها إثر استمرار ذلك الجهل. عندها عزم (العم ثابت) على أن يكون ابنه (أسعد) طبيبًا، فذهب به إلى الكُتَّاب، وصار ينفق أموالًا طائلة لكي

يتحسن مستواه التعليمي، وكان دائم التحفيز له؛ يبثُ بداخله حلمًا بأنه سيصبح طبيبًا يومًا ما. ذات مرة ضمه باكيًا قائلًا:

- ألست تحب أمك؟

- بلى يا أبي، أحبها كثيرًا، ولطالما تمنيت رؤيتها، فلقد أخبرتَني بأنها سافرت وقد مضى ثلاثة أعوام، وإلى الآن لم تعد؟

شعر (العم ثابت) بأن الأرض تلتف من حوله، فللمرة الأولى يشعر بأنه صغير جداً رغم حكمته أمام فطنة ابنه ونباهته، لم يكن يدرك أن تلك السنوات القليلة كانت كافية لأن تجعل من ابنه الصغير ذو السبع سنوات طفلًا مدركًا، حاول أن يخبئ دموعه، وبحزم مصطنع قال:

- إذا كنت تحب أمك حقًا، فعليك أن تصبح طبيبًا.

نظر إليه بتعجب قائلًا:

- ولكن يا أبي ما علاقة حبي لأمي بأن أصبح طبيبًا؟

استجمع (العم ثابت) هيبته وربت على كتفي ابنه قائلًا:

- اسمع يا بني، لقد كبرت الآن وحان الوقت لكي أخبرك الحقيقة. إن أمك قد ماتت لأنها لم تجد من يأخذ بيديها نحو الشفاء، وكذلك لم يجد جارنا (الأستاذ طارق) وغيرهما الكثير من يساعدهم حينما وقعوا فريسة للجهل والمرض، لذا يجب عليك يا بني مساعدة أبناء قريتك.

- أتعني بهذا أن أمي لن تعود؟

أجابه بصوتٍ مختنق، يجاهد كي يخفي دموعه عن ولده:

- نعم، لن تعود، فلا أحد يعود بعد الموت أبدًا.

- وما مصير الموتى يا أبي؟

اتسعت عيناه بما يسمع من كلمات ابنه، فأجابه قائلًا:

- الموتى مصيرهم إلى اللهّ، ونحن جميعًا سنموت ذات يوم، وسيكون مصيرنا إلى اللهّ أيضًا.

- وهل هذا بالمصير السيئ يا أبي؟

- بالطبع لا يا بني، إن كان مصيرنا إلى اللهّ فكيف نقلق! من لم ينسنا ونحن أحياء مرزوقين، فلن ينسانا ونحن في باطن الأرض مقبورين.

_هذه ثقة رجل قبطي قد قال تلك الكلمات الأخيرة وسقط مفارقًا الحياة وسط صرخات ابنه الذي يشاهد موت والده أمام عينيه، فعن أي وجع تتحدثون!

حزن (الحاج عبد الجليل) صديق (العم ثابت) على فراقه كثيراً، فقد كانت تربطهما ببعضِهما صداقة متينة نظراً لتقاربهما في العمر، فما كان ليوم أن يمضي دون أن يجلسا معاً يتبادلان الحديث؛ فلأجل تلك المحبة، ولشدة إخلاص (الحاج عبد الجليل)، لم يكن له أن يترك ابن صديقه وحيدًا دون أن يجد من يتكفل به ويرعاه، فأخذ (أسعد) للعيش معه في منزله المتواضع بين أبنائه الخمسة، لكنه اعتنى به وخصص له غرفة ليذاكر بها، وأوصى زوجته بتهيئتها له على أكمل وجه، فعلى الرغم من أنه لم يكن يوجد في البيت سوى ثلاثة غرف صغيرة، إلا أنه أخذ غرفة له ولزوجته وغرفة لأبنائه الخمسة، وترك (لأسعد) غرفة خاصة به حتى تفوق ووصل إلى المرحلة الإعدادية، ولقبه بلقب "الطبيب" غير أنه مازال أمامه صعوبات وعوائق حتى يصل إلى ذلك اللقب، لكنه إنجاز بالنسبة لأبناء قريته، كما ترك له حرية اختيار الدين فلم يجبره على اعتناق الإسلام، وأحسن تربيتهُ حتى أصبح ابنًا سادسًا له.

كان (الحاج عبد الجليل) عامل حفر يشق القنوات لتطهيرها، وهو من أشق الأعمال في القرية، فعلى الرغم من أنه في الثالثة والخمسين من عمره، إلا أنه لم يتراخَ في عمله يوماً ما، إلى جانب امتلاكه قطعة أرض صغيرة يعمل فيها أبنائه بجانبه لمساندته في المعيشة.

أما زوجته فكانت ربة منزل كمعظم نساء القرية، تقوم بأعماله بلا تقصير، فبالرغم من صعوبة العيش إلا أنه هو وزوجته لم يقصرا في حق (أسعد) يوما، أدا الأمانة على أكمل وجه من نصائح واهتمام بشؤونه.

كانت لا تحلو المذاكرة (لأسعد) إلا في أعلى قمم الأشجار أو النخيل المطل على ضفاف النهر، وكان لا يكل من المذاكرة والاجتهاد ليلًا ونهاراً، مضت الأعوام بمواصلة (أسعد) للنجاح والتفوق، و(عبدالجليل) لا يتوانى في بذل كل ما هو غالٍ ونفيس في مساعدته.

وفي ظل انتظار الأسرة بأكملها لنتيجة امتحانات شهادة الثانوية العامة في ليلة بالغة الصعوبة، منتظرين إعلان النتيجة على راديو الإذاعة، الخوف والقلق يعتري الوجوه، والصمت يعم أرجاء القرية؛ فجميعهم يترقبون هذه اللحظة الحاسمة، ومع سرعة دقات قلب (أسعد)، إذا بصوت المذياع

يعلن أن الأول على المحافظة هو (أسعد عبد الجليل) كما عرف بين أبناء القرية منذ وفاة والده.

انبعثت الزغاريد من كل الجوانب، وأخذ (أسعد) يحتضن والديه، ويقبل أيديهما، هنأه إخوته بحرارة بالغة، إنها لحظة يجب أن تُؤرخ أو أن يُغلق التاريخ بعدها "طبيبٌ قبطيٌ لأبوين مسلمين"

جاء المهنئون؛ مسلمون وأقباط، يهنئون (الحاج عبد الجليل) الفلاح البسيط الذي أوشك أن يقطِف ثمرة جهده طوال تلك الأعوام، وبات حلمه وحلم القرية على مقربة من الحدوث، بأن يصبح للقرية طبيباً من أهلها.

****

الفصل الثاني

مع مرور الوقت، أخذ (الحاج عبد الجليل) يكثف عمله هو وزوجته لتوفير ما يمكن توفيره من الأموال، من أجل تحقيق حلمه وحلم صديقه (ثابت)، بل وحلم القرية بأكملها؛ بأن يصبح لديهم طبيبًا.

ها هو قد اجتاز خطوة من الصعاب بوصوله إلى الجامعة، لكن الدراسة ستكون في جامعة "نيويورك" الأمريكية؛ نظرًا لانخفاض المستوى التعليمي في مصر في ذلك الوقت، وهو ما يعني أن هذا الأمر سيكلفهُ الكثير من الأموال، لكن إذا تعلق الأمل باللهّ حاشاه أن ينقطع.

ظل (الحاج عبد الجليل) يتوسل إلى اللهّ بأن ييسر له الحال، وأن يعينه على عبء تلك الجامعة.

وفي يوم من الأيام وبينما يستريح من عناء العمل، إذا بصديق له يجلس بجواره قائلًا:

- ما بك يا عبد الجليل؟ منذ قرابة شهر أراك مهمومًا، تُرى ماذا هناك؟

- رد بلا مبالاة لا شيء يا محمد.

- لا شيء كيف؟ إنني للمرةِ الأولى أراك صامتًا طوال تلك الفترة.

- لأنه لا يعلم حال القلوب إلا اللهّ يا (محمد).

- أخبرني، منذ متى وأنت تُخفي عني شيئًا؟ ثمة مشكلة تواجهك بالتأكيد.

- أنا لا أخفي شيئًا، ولكن ماذا بإمكانك أن تفعل!

- للهّ أمور يدبرها على يد أضعف خلقه، حتى يتعجب أصحاب النفوذ.

تنهد (عبد الجليل) قائلًا:

- حسنًا، أنت تعلم أن ولدي أسعد قد حصل على الدرجات النهائية التي تؤهله للالتحاق بجامعة الطب الأمريكية، وقد تعلق قلبه بها منذ الصغر.

- أطيب التهاني، أعلم هذا، ولكن هل هذا بالأمر السيئ الذي يستدعي منك كل هذا الحزن!

- أنا لست حزيناً يا محمد، ولكن من أين لي أن أحصل على تلك الأموال؟

- أموال! أي أموال هذه؟

- الأموال اللازمة له من سفر وإقامة وكتب وغيرها.

- أنت لست بحاجة إلى هذه الأموال يا عبدالجليل.

ضحك ساخراً:

- وهل ستدفعها له إذن؟

- لا، بل ستدفعها له الدولة كمنحة نظير تفوقه.

برقت عيناه بعلامات الرضا:

- ماذا؟! منحة تفوق! كيف ذلك؟

- إن الدولة ستتكفل بسفره وكتبه نظير تفوقه، هل فهمت؟

- يا إلهي! أنا لا أصدق، ومن لي بذلك يا محمد؟ أخبرني.

- ومن سواه؟! حضرة الكاتب (سعيد أفندي) باستطاعته تقديم الأوراق وتجهيز التأشيرة وكل شيء.

خرَّ (عبد الجليل) ساجدًا لله شكرًا:

- الحمد لله، لا تدري كم أرحتني الآن! سأذهب لأزف تلك البشرى إلى ولدي.

وألقى بالفأس من يده، وهم بالذهاب إلي البيت مسرعًا، لكنه التفت إلى صديقه قائلًا:

- متى سنتقابل مع سعيد أفندي هذا؟

- الأسبوع القادم إن شاء اللهّ، أحضر أوراق ولدك وانتظر، لكنك ستحتاج فقط إلى تقديم بعض الأموال القليلة لسعيد أفندي نظيرًا لما سيقوم به.

سأله مسرعًا:

- وكم سيكون ذلك المبلغ يا محمد؟

- أنا لا أعلم، لقد أخبرتك بالطريق الصواب فعليك إتباعه.

ابتسم (عبدالجليل) قائلًا:

- لكنك ستكون وسيطًا لي عنده، ولتتم جميلك معي.

ضحك (محمد) قائلًا:

- أنت لا تعرف سعيد أفندي هذا؛ إنه لا يعمل بالواسطة، المال هو الواسطة الوحيدة لدى ذلك الرجل، لقد أخبرتك الآن كل شيء، أنت رجل حكيم وستحسن التصرف، أنا واثق من ذلك.

وتركه وانصرف.

أنهى (الحاج عبد الجليل) عمله مبكرًا على غير العادة؛ فلم يعد لديه متسعًا من الوقت لإهدار فرصة كهذه، ولأنه كان رجلًا حكيمًا ظل يفكر في كلمات صديقه، فقرر أن يسأل عن (سعيد أفندي) أولاً ليجمع عنه معلومات أكثر؛ فمر من الناحية القبلية للقرية، وجلس على المقهى بعض الوقت علَّه يلتقي أحدًا من أكابر القرية ويسأله عنه.

وصل إلى المقهى وسط ترحاب شديد من الجالسين عليها، كان (للحاج عبد الجليل) إجلالاً واحتراماً بين أهل قريته، ومن ثم فقد ازدادت تلك المكانة العظمى في قلوبهم، بما فعله مع (أسعد) الذي علمه أفضل تعليم وهذبه أفضل تهذيب، حتى قيل بأن والده إن كان حيًا فلم يكن ليفعل مثل ما فعله (عبد الجليل)؛ فلقد ترك له حق الديانة وحافظ على مشاعره تجاه دينه، وإن كان الحال كذلك لدى جميع أهل القرية الذين عُرفوا بالشهامة والمروءة، فاعتادوا مسلمين وأقباط تبادل الزيارات وتهنئة بعضهم البعض في شتى الأفراح والمناسبات، لترفرف أعلام المحبة على ضفاف نهر السلام في جو تسوده المودة والألفة.

****

التقى (الحاج عبد الجليل) بمقاولٍ كبير من البلدة المجاورة، فحيَّاه وسأله عن (سعيد أفندي)، فأخبره الرجل بأمانته، لكنه يحصل على أموال كثيرة مقابل أنه يعطيك خدمة متكاملة، وأخبره عنوانه، فاختار (الحاج عبد الجليل) يوم الجمعة ليأخذ زوجته وابنه (أسعد) في زيارة إليه، وحملوا معهم ما لذّ وطاب من الفطائر واللحوم الشهية والفواكه الطازجة.

ما إن وصلوا إلى بيت (سعيد أفندي) الذي اعترتهُ الدهشة من هذا الكم من الخير الوافر، حتى رحب بهم قائلًا:

- تفضل يا حاج عبد الجليل، ما كل هذا؟

ابتسم (عبد الجليل) بدهاء:

- وهل هناك أغلى منك يا سعيد أفندي؟ إنه لا يليق بك.

- أشكرك يا سيدي، تفضل بالجلوس، لقد أخبرني الحاج محمد بأنك تريد إحدى الخدمات، ترى ماذا هناك؟

- نعم يا سعيد أفندي، إن ولدي أسعد قد حصل على درجات تؤهله للالتحاق بجامعة الطب الأمريكية، ولأنك تعلم ضيق الحال، أريد منك أن تساعده ليسافر بمنحه التفوق.

أخرج (سعيد أفندي) سيجارة وأشعلها، ثم التفت إلى (أسعد) قائلًا:

- وما ترتيبك يا بني؟

- ترتيبي الأول يا سيدي.

- عظيم! لا تقلق، لكن سيكلفك الأمر بعض الشيء يا حاج عبد الجليل.

- ولكنك لن تعاملنا مثل أي شخص يا سيدي، فهذا ظني بك.

ضحك قائلًا:

- حتمًا بالتأكيد، سأخدمك خدمة عظيمة بأن سيظل ابنك هناك حتى يحصل على شهادة البكالوريوس من جامعة نيويورك، وسأجعل معه معاونًا يرافقه ويبسط له المحاضرات المعقدة، وهذا سيُساعده كثيرًا.

- عظيم يا سعيد أفندي، وكم ستأخذ مقابل هذا؟

- سوف آخذ إثنين من الجنيهات.

حدقت عينا (عبد الجليل) بدهشة:

- يا إلهي! ماذا؟ اثنان من الجنيهات! من أين لي بهم؟ لقد كان أكثر ما يجول في خاطري أن الأمر لن يتجاوز العشرين قرشًا، من أين يمكنني الحصول على ذلك المبلغ الباهظ.

- أُقسم لك يا سيدي أن هذا المبلغ من أجلك فحسب، فلا تنسَ أن التأشيرة وجمع الأوراق والرجل الذي سيُساعده لخمسة أعوام كل ذلك سأُوفره لك.

قال (أسعد) بخيبة أمل وانكسار:

- هيا بنا يا أبي، إننا لن نقدر على هذا، لا داعي لتلك الجامعة، إن تكلفتها تفوق طاقتك.

قالها والدموع تلمع بعينيه، فضمه والده قائلًا:

- لا تحزن يا بني، فوالله لأدخلنّك تلك الجامعة مهما كلفني الأمر.

فاستأذن من (سعيد أفندي) قائلًا:

- سنأتي إليك الأسبوع القادم.

في الطريق سألته زوجته:

– ماذا ستفعل يا عبد الجليل؟ إننا لا نقدر على جمع تلك الأموال.

و(عبد الجليل) شارد الذهن، يفكر في حيلة يستطيع من خلالها الحصول علي تلك الأموال، حتى إذا ما غربت الشمس عاد لبيته ونادى على زوجته قائلًا:

– كم يساوي ما عندكِ من حُلي يا أم عبدالله؟

– يساوي ستين قرشاً.

– وكم ادّخرنا خلال تلك الفترة الماضية من بيع محصول القطن؟

– عشرون قرشا أخرى.

– حسنا، إذاً فلتُحضري الذهب غدًا.

– أمرك يا عبد الجليل، لكن أخشى ألا يكفي.

تنفس بهدوء:

– سأبيع ثلاثة قراريط من الأرض.

صرخت قائلة:

- لا يا عبد الجليل، إلى هنا ونكتفي، إن ما نمتلكه عشرة قراريط فقط، ولدينا خمسة أبناء ولن أسمح بالتفريط....

قاطعها بغضب:

- منذ متى وأحد يراجعني؟ أنا فقط أخبرك ولست أستشيرك.

تمتمت بخوف:

- أمرك يا عبد الجليل، فلتفعل ما تراه صوابًا.

تابع قائلًا:

- ولو احتاج الأمر أن أبيع ما تبقى من الأرض سأبيعه دون تردد، لكنني أتركها لهدف ما بداخلي.

- كما ترى، لكن لدي سؤال.

تنهد بارتياح:

- سلِ ما شئتِ يا أم عبد الله.

- أرى أن قيراطان يكفيان بل يزيد، لماذا تنوي بيع الثالث؟ فنحن بحاجة إليه ولا نحتاج لبيعه.

- لأنها الجامعة الامريكية؛ يجب أن يكون أكثرهم تألقًا وأناقة، فلن يكون أقل من زملاءه أبدًا.

تم بيع الأرض، ودفع الأموال إلى (سعيد أفندي) الذي بدوره قد أحضر التأشيرة بعد شهر، وحان وقت السفر في مشهد مهيب؛ البلدة كلها تودع (أسعد)، ودموع الفرح تنهمر على وجوههم، متمنين له النجاح، بين توصيات والده بالصدق في المعاملة والتمسك بمبادئه وأخلاقه وغيرها من الصفات الحسنة التي نشأ عليها.

أقلعت الباخرة متجهة إلى "نيويورك"، وما زالت البلدة بأكملها تنظر إليها، وتلوح لها بمناديلهم، حتى غابت عن الأنظار.

****

الفصل الثالث.

استقل الركاب على متن الباخرة، التي تُبحر بسرعة عشرين ميلاً بحريًا في الساعة، بعد أن علم كلٌ منهم غرفته وبرنامجه اليومي من طعامٍ وشرابٍ.

لاحظ (أسعد) أن الأماكن مختلفة تمامًا؛ فالمقاعد منها النفيس والذي قد صُنع من الحرير وخُصص للفئة الأكثر ثراءً. ردد في نفسه:

- يبدو أن كلام والدي صحيح للغاية؛ فالحياة في أمريكا تبدو مختلفة تماما عن باقي أنحاء العالم.

_اقتطع حبل أفكاره سؤال من فتاة، تبدو عليها علامات الثراء:

- هل أنت مصري؟

أومأ برأسه إيجابًا:

- نعم.

سألت باستنكار:

- من أي المحافظات أنت؟

- من محافظة قنا.

ضحكت ساخرة:

- قنا! وهل أخبروكم أن أمريكا في حاجة للمزارعين؟

أجابها بغضب:

- مزارعين! إنني ذاهب للالتحاق بجامعة نيويورك، سأكون طبيبًا إن شاء الله.

- طبيبًا! ومن قنا! إنك تمزح، أليس كذلك؟

نهض واقفًا:

- من أنتِ حتى تتحدثين عن قنا بلد الرجال والشهامة؟ إياكِ أن تتحدثي عنهم هكذا.

صرخت في وجهه، وقد شحب وجهها:

- أظنك نسيت أن تقول أنها أكثر المحافظات المليئة بالفلاحين الجهلاء.

أجابها بهدوء: نعم، الفلاحين الجهلاء هم من ينتجون القطن لتلك الملابس الفاخرة التي ترتدينها، ويربون الماشية للحصول على الألبان التي تشربينها، لولاهم ما كان هناك قيمة لأمثالِك.

أشاحت بوجهها غاضبة:

- تبًا لوقاحتك! كيف تتحدث إليّ هكذا؟

وقامت باستدعاء رئيس البعثة، الذي أتى على الفور، قائلة وهي تضع إحدى قدميها على الأخرى:

- إن ذلك الأحمق يتحدث معي بطريقة لا تروق لي، يجب أن يعلم الفلاحون قدرهم الحقيقي.

كتم (أسعد) غيظه، ولم ينبس بكلمة واحدة، في حين قال قائد البعثة:

- يجب أن يلزم كل فرد حدوده ولا يتخطاها.

أجاب (أسعد) بصرامة:

- أنا أعلم حدودي جيدًا ولم أحد عنها، لقد كنت.....

قاطعه بحدة:

- اصمت أيها الوغد، من يأذن للفلاحين هنا بالتحدث في وجود أسيادهم؟

غضب (أسعد) قائلًا:

- يبدو أنك تجامل تلك الفتاة، وتحيد عن الحقيقة، أظنها أعطتك بعض النقود، فهذه قيمتك بالتأكيد.

قهقه بصوت يوحي بالسخرية:

- أخبرني، وما قيمتك أنت؟ إنك تسافر على منحة الدولة، تبًا لمجانية التعليم التي جعلت الرؤوس متساوية!

هنا ذرفتْ الدموع من عينيهِ ، لقد أدرك أن للمال قيمة عُظمى، ونفوذ يجعل صاحبه يتحكم كيفما يشاء، تابع قائد البعثة حديثه، وقلبه ممتلئ بالحقد تجاه (أسعد):

- يجب أن تعرف أيها الفلاح أن لكل مقام مقال، وللناس منازل، فعلى سبيل المثال، أتعلم أن المبلغ الذي أُنفق على الرحلة الخاصة بالسيدة (نورا)، التي تُعكر صفوها الآن، كافٍ لأن يجعل الفلاحون ببلدتكم أعيانًا؟

ضحكت الفتاة بشدة، وصافحت ذلك القائد، ونظرت إلى (أسعد) الذي يغلي الدم في عروقه، وقالت:

- مسكينٌ أنت أيها الفلاح، فأنت لم تعرفني بعد، فالفلاحون أمثالك لم يعهدوا تلك الأناقة والمظاهر الاجتماعية من قبل، أليس كذلك؟

أجابها بحزم، بعد أن جفف دموعه:

- نعم، فالفلاحون مثلي لا يشرفهم معرفة فتيات ليلٍ مثلك، إنك بما ترتدينه من ملابس لو كنتِ عندنا لقطعت رقبتكِ، لكن ما ذنبكِ أنكِ لم تخرجِ من بيت به رجال؟

وتركها بينما تنظر إليه في غضب، وقد احتقن وجهها، واعترتها الصدمة من قسوة إجابته، أما هو فقد جلس باكيًا، وقد عاد بمخيلته إلي الوراء؛ يتذكر كلمات والده:

- لا تظن أنك ذاهب إلى جنة هادئة، إنك ستكون بعد قليل داخل ساحة معركة حامية الوطيس، عليك أن تتقن فنون الصبر، وتتعلم جميع أمور الطب، فلم أكن لأُفرّط يومًا في شبرٍ واحد من أرضي (وإنه لعار عظيم في عاداتنا وتقاليدنا أن يبيع المرءُ أرضه)، لكنني أديت ما عليّ فعله، ولا تظن أنك إن أصابك الفشل سيغير ذلك من نظرتي إليك أو معاملتي لك، بالطبع لا، ولكنه سيقتل حلم المئات من أهل بلدتك الذين يثقون بك، وينتظرون منك القدوم بالشهادة، إياك أن تخذل إنسانًا رأى بك حلماً، يجب أن تقاتل من أجل حلمك وحلم بلدتك، ونحن ورائك بقلوبنا، وستلاحقك دعواتي ودعوات والدتك بأي أرضٍ حللت، فلتتحمل مهما

تكن عواقب الأمر، انظر إلى الأمام، حين تعود ومعك شهادة الدكتوراه؛ ستكون أول شخص يحصل على ذلك ويساعد أبناء قريته، إنه إنجاز، بل تاريخ، انهض ولا تعد إلا مرفوع الرأس، فلم يعد هناك متسعًا من الوقت للتراخي والكسل.

اقتطع ذلك التفكير صوت أجراس الباخرة معلنةً الوصول بسلامٍ إلى الشواطئ الأمريكية، فذهب ليحزم أمتعته.

****

تختلفُ الحياةُ في (أمريكا) عن غيرها من الدول اختلافاً كبيراً حيث نظافة شوارعها ومظاهر التحضر- والرقي، إلى جانب تمتعها بالعمارة الحديثة ووسائل التعليم المتحضرة، ظل أسعد ينظر يميناً ويساراً بحثاً عن ضالته المنشودةَ "مستر ريكسون" معاونهُ في الدراسة والحياة الجديدة والذي قد أخبره عنهُ سعيد أفندي ، ما لبث أن مضى خمس دقائق حتى وجد أسعد لافتةً مكتوب عليها بالإنكليزيةِ "مرحباً أسعد عبدالجليل" يحملها شاب أشقر في الثلاثين من عمره، تقدم أسعد نحوه قائلا إنني أسعد يا سيدي، نظر الرجل بإشمئزاز وكأنه لم يفهم ،عادها أسعد بالفرنسية لكن دون

جدوى ، تعجب أسعد من ذلك الرجل الذي لا يـتكلم إلى أن دق جـرس هاتفه فتحدث الرجل بالإنكليزية قائلاً مستر ريكسون ذلك الشاب يقـف معي الآن ، حسناً يا سيدي سنأتي في الحال ، ورمق أسعد بنظرةٍ حـادة دون أن يتفوه بكلمة واحـدة وقـاد سـيارته بسرـعة جنونيـة ممـا أدى إلى ظهـور علامات التوتر على وجه أسعد الذي سأله هل منزل مستر ريكسون بعيد ؟

_ لا على الإطلاق.

_حسناً هل هو.....

قاطعة بهدوء لماذا تتحدث كثيراً يا سيد أسعد؟ هل أتيـت هنـا للدراسـة أم للحديث الذي لا فائدة منه ؟ سنصل بعد سبع دقائق ونصف.

حدقت عينا أسعد بدهشة ولم ينطق بكلمةٍ واحدة .

_توقفت السيارة أمام ذلك المبنى الخشبي الصغير الـذي يطـل عـلى حافـة النهر فنزل أسعد وحمل حقائبه ليجد مستر ريكسـون بانتظـاره، رحـب بـه الرجل باهتمام: تفضل وأخذ يسأله عن أهله وبلدته.

_ اندهش الرجل من حديث أسعد وردد في نفسه كيف لرجل أن يتولى تربية طفل ليس بابنه وعلي غيرِ دينه حتي أوصله إلى تلك الجامعة رغم ضيق معيشته !

أخذ مستر ريكسون يعطي أسعد نصائحه الثمينة كما خصص له غرفة داخل حديقة منزله وبعد أن تناولا الطعام أوصى أسعد بالذهاب إلى غرفته كي يرتاح من عناء السفر، لكنه سرح بمخيلته إلى موطنه ووالده وأهل قريته ثم أخذت الذكريات مجراها بداخله. أما والده فقد أعد ثوباً من القماش وربطه من الأسفل وجمع بداخله عددا كبيراً من الحجارة الصغيرة وهو ما يزيد عن الألف حجر وهي عدد الأيام التي سيغيبها ولده عنه ، فكان يذهب كل يوم بعد غروب الشمس فيأخذ حجراً من ذلك الثوب ويلقي به في النهر ويردد في نفسه "الآن قد مضى- يوم آخر على فراقك يا بنى" لطالما تمنيتُ مرورَ الأيام على الرغم من أنها تأخذ من صحتي، لكن لا بأس حين تعود سالماً ومعك شهادة الدكتوراه، ها أنا ذا قد ولدت من جديد فلتمضي الأيام سريعاً أخشى أن أموت قبل هذه اللحظة ويتمتم بدعوات بينه وبين اللهّ .

أما أسعد فكان عندما يأتي كل يوم من الجامعة يروي أزهار الحديقة التي أصبحت أكثر نضرةً وجمالاً بعد أن أضاف لها بعض النباتات الجميلة ذات الروائح العطرة، فكانت زوجة مستر ريكسون تأتي على غير العادة لتستنشق هواءً نقيا إلى جانب مشروب النعناعِ الأخضر ـ الذي يعده لها أسعد كل مساء، بعد أن قام بزراعته والذي بدوره أدى إلى شفائها من مرض القولون العصبي ، ازداد إعجابُ مستر ريكسون بأسعد الذي لا يكل من العمل والمذاكرة فلم يبخل عليه بشيء بل ظل يساعده في معرفة كل شيء عن فنون الطب ، نصحه مستر ريكسون بأن يبذل قصارى جهدهِ حتي يصبح جراحاً كبيراً إلى جانب الطب النفسي لشدة ذكاء أسعد وتنبأ له بمستقبلٍ باهر .

مضى العام الأول وحصل أسعد خلاله على درجة الامتياز، فسرـعان ما أرسل خطابا بريدياً لوالده الذي أشرقت أنوار وجهه وظل يشكر ربه على نعمائه العظيمة بينما كان أسعد يستيقظ كل صباح كعادته مبكراً حتى أثناء العطلة الصيفية ليروي أزهار الحديقة ومن ثم يذهب إلى المطعم القريب من المنزل، والذي قد بحث فيه عن فرصة عملٍ إلى أن توافرتْ له بأن

يعمل كعامل تنظيفٍ للصحون، فوافق رغم اعتراض مستر ريكسون عليها بأن هذا العمل لا يليق به قائلاً إنكَ ستصبح طبيبا بارعاً ذات يوم .

_ لا يا سيدي حتى وإن كنت طبيبا فلا عيب في العمل مادام حلالاً مكسبه هكذا يقول والدى. _ابتسم الرجل بهدوء قائلا أتعلم ! إن والدك الفلاح هذا أعظم من أعظم طبيب في جامعتنا فلهُ من الحكمة شيئاً جعله يزداد في مخيلتي دون أن أراه وما يعجبني فيك هو تمسكك بأخلاقك ومبادئك. _نعم يا سيدي فلقد عاهدت والدي على ذلك، سأستأذنك الآن إنه وقت العمل.

****

الفصل الرابع.

"المريضُ ليس زبوناً أو عميلاً ، المريض هو جزءٌ لا يتجزأُ من طموحاتك وأحلامِك فمع كل مريض تنقذ حياته تحظى بشعورٍ لا يمكن وصفه، فيكفيك حينها أن تستشعر السعادة في قلوب أهله، فللمرضى عليك حق المعاملة الحسنة ، يجب أن تبث الأمل في نفوسهم وتشد بأزرهم فذلك يساعدهم على الاستجابة للشفاء ومن ثَم فأنت طبيبٌ ناجح".

_ألقى "الطبيب مانويل"، أستاذ الجراحة العامة بكلية الطب بجامعة نيويورك تلك المحاضرةِ لطلاب الفرقة الثالثة وأردف قائلاً "حتى تكون طبيباً ناجحاً لا يكن هدفك الأول المال فالمالُ قد تعوضه ذات يوم لكن الأرواح لن تعوض أبداً، فلتبذل قصارى جهدك كي لا تدعها تذهب هباءً"، وقام بطرح بعض الأسئلةِ التي لم يكن يعلم إجابتها سوى أسعد وأحيانا طالبةٌ أخرى، فأمرهما أن ينتظراه بعد انتهاء المحاضرة كما حضر بعض الطلابِ تلك المناقشة.

_ سأل الطبيب مانويل، هل حصل أحدكم على درجة الامتياز على مدار العامين السابقين ؟

_ قال أسعد أجل يا سيدي لقد حصلت عليها إلى جانب مرتبة الشرف، رائع استمر على بذل ذلك المجهود حتماً ستكون طبيبا رائعاً.

_كم من المال دفعت حتى تحصل على الإقامة هنا؟

_ احمرّ وجهه ونظر إلى الأرض خجلاً، لقد جئت إلى هنا بمنحة تفوق يا سيدي.

_ ضحكت إحدى الفتيات بسخرية قائلة: إذاً ستعالج المرضى بالمجانِ لأنك تدرس مجاناً أليس كذلك؟

_شعر أسعد بغصة في حلقه لكنه لم يبالِ بسؤالها وادّعى أن تلك الجمرةَ التي في يده من قسوةِ عبارتها، ماهي إلا قطعة ثلجٍ في صيفٍ حار، فاكتفي بالصمت في حين استشاط الطبيب مانويل غضباً واستدار بوجهه نحو الفتاة قائلاً لا يحق لأحد هنا أن يسخر من أحد فالجميع سواسيةً كأسنان المشط، فلتعتذري إلى زميلك فوراً.

_ قضبت شفتيها بغيظٍ وتمتمت أعتذر منك، تابع الطبيب مانويل حديثه إلى أسعد إن زملائك يقولون أنك قلما تتحدث إلى أحدٍ منهم وأنك تكاد تكون في عزلة عن الجميع لماذا ؟ ولماذا تبدو في عينيك علامات البؤس؟

_ليس بؤساً يا سيدي ولكنني جئت إلى هُنا من أجل الدراسةِ فحسب ولهدفٍ أريد تحقيقه.

_وماذا يعمل والدك؟

_أجابه بصوت يعكس ارتباك نفسه : إن والدي يعمل عامل حفرٍ لتطهير القنوات والُترع.

_ نظر الجميع إليه باحتقارٍ وهم يتغامزون بإشارات توحي بالسخرية، قال له الطبيب مانويل حسناً فلتجتهد إذاً كي تتثبت ذاتك لهؤلاء الحمقى فإني أختلف معهم، فالمال ليس محور الكون كما يظنون، إنني أعلم ماذا تعمل وكيف تسكن هنا، أتعلم؟ إنك رمزٌ من رموز النجاحِ والفخر اجتهد يا بنيّ ولا تلتفت إلى تلك المظاهرِ التي لا قيمة لها، دع المظاهر الخداعةِ لهم ولتحتفظ بالنجاح والطب، في قلبكَ فالعبرة بالخاتمة وداعاً.

وبعد أن غادر الطبيب مانويل قاعة المحاضرات ظل الجميعُ ينظرون إلى بعضهم ويضحكون، والده عامل حفرٍ ولا يتحدث إلينا! كيف إذا لو كان رجل أعمالٍ كبير! أما هو فقد أمسك كتابه وظل يدون ما ألقاه الطبيب وهو يغلي في أعماقه دون أن ينظر إلى أحدٍ ممن يتهمونه بالتكبر وأحيانا أخرى

بالبؤس والكآبة، أي إنسانية يفتقدها البعض حين يعطون لأنفسهم الحق في الحكم على الأشخاص من مظاهرهم الخارجية دون التمعن في أرواحهم!

حقاً لا أحد يعلم ما أصابك؟ لا أحد يعلم حجم معركتك الخاصة مع الحياة وما الذي أخذته منك ؟ لا أحد يعلم كم من الليالي سهرت وتعبت وكم من الليالي جافى النوم عينيك إثر كلمة ألقاها أحدهم دون أن يبالي ؟ لا أحد يعلم من أنت حقاً ؟ الشيء الوحيد الذي يرونه فيك هو التذمر والملل والضجر، لا أحد يرى اجتهادك ، حروبك مع نفسك وتحديك للظروف والعوائق، لا أحد يدرك ثباتك وصراعك من أجل ألا تسقط أمام الحمقى الذين يحبطونك ، لا أحد يعلمُ محاولاتك المستميتة للوصول، بل يرمقونك بنظرات الذهول لأنك لا تخطُ خطوة واحدة للرجوع عن هدفك والاستسلام دونه، فلقد قطعت أميالاً وحيداً صامتاً ومعذباً يا لها من قوةٍ ويا لها من إرادةٍ تلك التي تسكُنك .

****

الفصل الخامس.

جلسَ الحاجُ عبدالجليل في حقلهِ بعد عناءٍ من حصاد القمح فقسمه إلى ثلاثة أقسامٍ متساوية وجلس يحتسي كوباً من الشاي وسط أبناءه.

_سألهُ ابنه الأكبر عبدالله لماذا قسمت القمح إلى ثلاثة أقسام يا أبي؟

_أجابهُ مبتسماً: الثلث لنا والثلث الثاني نبيعهُ للشوناتِ الزراعية بينما الثالث هو حق الفقراءِ علينا.

_تعجب الابن قائلاً: لكن الثلث أكثر من حق الزكاةِ علينا ولن يتبقى لنا الكثير.

_بل يتبقى الكثير يا بني فما نخرجه هو الذي سيبقى وما ندخرهُ سيذهب، فمن المحال يا بني أن يكون العبدُ أكرم من ربه وأثق بأنه سيهطل علينا بذلك خيراً وفيراً.

_صدقت يا أبي لكنني سئمتُ من ذلك العمل لقد عملت به لأنك من أمرتني بذلك لكنني في حقيقة الأمر لم يعد لدي رغبة في الاستمرار به.

_نظر إليه والده في هدوء قائلاً: لا يا بني إن لم تكن مقتنعاً فلا جدوى من العمل به إذاً، ثم إنني لم آمرك لقد اقترحت لك ذلك العمل، وهو ليس بالسيء أن تتاجر في الحديد والخردوات فالتجارة بها نسبة ربحٍ جيدة لماذا لا تحب عملك كي يحبك؟

_ابتسم بإحباطٍ أي عمل هذا يا أبي! كلماتك تشعرني بأنني أمتلك متجراً كبيراً أو أنني رجل أعمالٍ أو من أحد الأثرياء.

_تابع الحاج عبدالجليل بحكمةٍ: إذا أردت حقا أن تكون هكذا فعليك أن تحب ذلك العمل الذي تَري أنه بلا قيمة، إذا أحببت عملك ستصل إلى ما تريد.

_ولكنني يا أبي أعمل به منذ عامينِ وما أحصل عليه يكفيني بالكاد.

_هل ما يكفيك أفضل أم أن تمد يدك للناس أفضل؟

_لا يا أبي بل ما يكفيني بالطبع أفضل.

_إذاً فلتجتهد في عملك ويكفيك فخراً أنك تأكل حلالاً "ستصل ذات يوم يا بني" لكن عليك بالاجتهاد وسيأتيك التوفيق حتماً. _قبّل يد والده

وأثنى عليه أفضل ثناءٍ، "الأب هو الشخص الذي تذهب إليه بهموم الدنيا، وتعود سعيداً"

أخذ حِماره وعربتهُ ومضي في عمله يبحث عن بعض الخردوات فكان يشتري الأشياء القديمةَ ويبيعها لتجار البلدة المجاورة، ذات يوم وبينما كان يسير بعربته في أحد البلدان إذ لقيَتهُ سيدةٌ تبدو عليها علامات الثراءِ الفاحش فأخذته إلى القصر التي قد اشترته هي وزوجها منذ فترة قصيرة، سألته ما اسمك أيها الفتى ؟

_ أُدعى عبدالله يا سيدتي.

_حسناً يا عبدالله هل تشتري الخردوات والأشياء القديمة ؟

_ نعم يا سيدتي .

_ حسناً لقد اشترينا ذلك القصر وأريدك أن تأخذ جميع الأشياء التي بداخله من أثاث قديم وصناديق، لا تترك شيئاً سنقوم بتجديد جميع الأثاث .

_ عذراً يا سيدتي ولكنني لا أمتلك المال الكافي لشراء كل هذهِ الأشياء .

_عقدت حاجبيها بدهشةٍ: ومن قال إنني أريد منك مالاً، أنا أُعطيك هـذه الأشياء مقابل أن تترك لنا القصر نظيف تماماً، اصطحبته السـيدة معهـا إلي الداخل لم يصدق عينيه مما رأى من أشياء كثيرة سـيربح فيهـا ربحـاً وفـيراً فأخذ يضعها بحرصٍ شديد وبشكل منظمٍ على عربتـه التـي امـتلأت عـن آخرها فأفرغها وعاد ثانيةً إلى ذلك القصر فحمل جميـع مـا بـه في حـين أن قالت له السيدةُ وزوجها إننا لا نعرف هل تستحق أن تبـاع كلهـا أم أن بهـا بعض القمامات التي لا تصلح للبيع؟ فما يصلح منها فهو هبـة لـك ومـا لا يصلح ألقهِ بعيداً.

حسناً يا سيدتي واستأذن عائداً إلى بيته فرحاً بالرزق الوافر، وبينما هو يفـرغ الأشياء مع والده ليري ما يصلح للبيع وما لا يصلح وجد والـدهُ صـندوقاً خشبياً مغلقاً ، تري ماذا يوجد بداخل هذا الصندوق يا عبدالله؟

_لا أدري يا أبي ربما كانت بعض الأسلاكِ النحاسية ستكون غاليـة الـثمن هيا لتفتحته يا أبي. فأخذ مطرقةً وقام بكسرـ الصـندوقِ ليجـد فيـه بعـض الكتب القديمة وبينما يقلب إذ وجد الحاج عبدالجليل قطعتين مـن الـذهب الأحمرِ باهظ الثمن على هيئة أسدين، فصاح بدهشةٍ إنهـا آثـار يـا بنـي آثـارٌ ذهبية.

_ يا إلهي ! ماذا! آثار ذهبية!

_نعم يا بني وقام باحتضانِ ولده حينها تذكر عبد اللهّ كلمات والده له "ستصل ذات يومٍ فمن المحال أن يكون العبد أكرم من ربه "، وسجدا للهّ شكراً.

_أوصى الحاج عبدالجليل ولده بألا يخبر أحد شيئاً عن هذا الأمر ، وقام بمسح الغبار عن التمثالينِ فازدادا بريقاً ولمعاناً، احتفظ بهما في مكان آمن وفي اليوم التالي ذهب الحاجُ عبدالجليل إلى رجل ثريٍ من القرية المجاورة وأخد معه ولده عبدالله تحدث عبدالجليل إلى الرجل قائلاً لقد أتيتُك آملاً أن تدلني على الطريق الصحيح حتى أبيعَ تلك القطعتين، أخرج عبد الجليل القطعتين للرجل فما إن رآهم حتى كاد أن يغشى عليه ذهولاً، يا لحظك يا حاجُ عبدالجليل أنت رجل محظوظٌ حقا .

_ضحك قائلاً: إنها الأرزاق تساق إلينا من اللهّ وأنت تعلم جيداً كم عانيتُ أنا وأبنائي لكن هل عندك من أحدٍ يمكنه شرائُها؟

_بالطبع المئات يرغبونَ في شراء مثل هذه التحفِ الثمينة لكن كم من الأموالِ تريد ثمناً لها ؟

_نظر بعينين ثاقبتين: لا أعلم كم ثمنها! ولهذا جئت إليك لتساعدني في بيعها بأفضل ثمن.

_نظر الرجل بدهاءٍ سأدلك علي رجل يمكنه شراء القطعة منها بمائة جنية ما رأيك؟

_أجاب ابنه على الفور يا إلهي ماذا؟ مائة جنيه بالطبع نوافق ، لكن الحاجُ عبدالجليل لم يكن متسرعاً فتحدث بحكمةٍ لا داعي الآن.

_ شحبَ وجه ابنه وقد اعترتهُ الدهشة لا داعي إلى ماذا يا أبي هل سمعت؟ إنه يقول مائتي جنيه للقطعتين بإمكاننا شراءُ البلدة بأكملها.

_فلتصمت أنت يا عبدالله لن أبيعها بهذا السعر سأفكر أولاً. _قال الرجل: حسناً انتظر سأرسل إلى الرجل ليأتي لتتفاوض معه أنت، ثم ابتسم لكنني سأحصل علي نصيبي منك في حالِ اتفقتما علي ثمنٍ أعلي.

_حسنا أوافق.

_وصل الرجل الذي أبدى إعجابه الشديد بالقطعتينِ وبعد وقتٍ من التشاور والفصال الشديد قال الرجل سأدفع ألفَ جنيهٍ للقطعتين.

_صمت الجميع وكأن علي رؤوسهم الطير من هول ما يسمعون في حينِ قال الحاج عبد الجليل لكنني أرى أن القطعة الواحدة قد تساوي ألفَ جنيه. _نهض الرجل واقفاً مستحيل يا حاج عبدالجليل هكذا لن أربح فيها شيئاً .

_ابتسم في لؤمٍ قائلاً: وأنا لا أرتضي لك الخسارة كما لا أرتضيها لنفسي- أيضاً سأستأذنكَ الآن هيا بنا يا عبدالله.

_قال الرجلُ: انتظر أنا موافق يا لكُ من رجلٍ ذكي سأجمع لك الأموال غداً وتأتي لتستلمها مني.

_لا بل ستأتي أنت لبيتي لنتناولَ العشاء سوياً ويتم التسليم بأمان عندي فلن أخط خطوةً واحدةً بهذه الأموالِ خارج عُقر بيتي أبداً.

_حسناً سآتي إليك غداً وانصرف، بينما وقف الرجل الثري هو وعبدالله مذهولين من شدة دهاءِ عبد الجليل، "حقاً إنّ الذكاءَ لا يقتصرُ على التعليمِ فحسب بل يكمنُ أيضاً في متاعبِ الحياة التي بدورِها تُكسبُ المرءَ خبراتٍ لا تقدرُ بِثمن ".

****

الفصل السادس

"كلٌ ميسرٌ لما خلقَ له فبالرغمِ من الصعوباتِ التي تواجهنا في الحياةِ، إلا أننا قادرونَ علي المواجهةِ والتحدي، فلكل إنسان عزيمتهُ وإرادتهُ التي قد تنهارُ ذات يوم ،فهناك من يهزمه اليأس ويجعله فريسةً للاستسلام، وهناك من يتعثر وينهض أقوى مما كان عليه، كل ذلك يتعلق بشيء ما بداخلنا يسمى الإرادة والتي يندرج تحتها الثقةُ بالنفس، فلن تكن ناجحاً إلا عندما تري نفسك كذلك، لأنه لن يؤمن بكَ الناس قبل أن تؤمن بنفسك وبأحلامك وأن تسعى جاهداً في سبيل تحقيقها.

فهذا الحاج عبد الجليل الفلاح البسيط ظل طوال حياته مكافحاً مخلصاً في عمله محباً له رغم صعوبته، إلا أنه كان يؤمن بأنه سيصلُ ذات يوم وضرب بذلك أروع الأمثلة لأبنائه بل ولأهل قريته جميعاً، ها هو الآن قد أصبح من الأثرياء، لكنه لم يتبطر يوماً على عمله أو يغير عاداته، فكان يذهب إليه رغم اعتراض أبنائه وكان بحكمته دائما ما يقول "لقد رزقنا اللهّ هذا الخير الوافر نظيرَ إخلاصنا وتفانينا في العمل فلم نكن لنحصل علي هذا المال

ونحن جلوسٌ في المنزل ولن نعتمد عليه، بل يجب أن نجتهد كي نستثمرهُ ولا نتكبر علي أي عمل كان"، وذات يومٍ بعد أن عاد من الحقل

دخل إلى غرفته فما لبث أن خرج مسرعا وقد تهللت أساريره، فنادى على زوجته والتي قد لبت ندائه بلهفة خيراً يا عبدالجليل ماذا هناك؟

_اسمعي يا أم عبد اللهّ فلتذهبي الأسبوع القادم إلى السوق ولتشتري جميع أنواع اللحوم والدجاج التي يحبها أسعد، اعملي على أن يمتلئ البيت سريعاً بما لذ وطاب فلم يتبق على قدومه سوى عشرة أيام، يجب أن نعوضه عما افتقده في سنوات الغربة.

_سألت زوجته مستنكرة وكيف عرفت ذلك ؟

_مبتسماً بعدما اتكئ علي أريكة بالمنزل، لقد تفقدت الثوبَ الممتلئ بالحجارة ولم يتبق به سوى عشرة أحجار فقط.

_أردفتْ قائلة وبدت على وجهها علامات الفرح: أمرك يا عبدالجليل، وأخذت تدعو اللهّ أن يعيده إلي البيت طيباً معافَى، أما هو فقد أوصى أبنائه بتهيئة البيت وتجديد ألوانه وتعليق الزينة استعداداً لاستقبال الطبيب

أسعد بعد غيابٍ دام لأعوام، فسُرعان ما استجابوا بكل سرورٍ امتثالاً لأمر أبيهم.

وفي يومٍ من الأيام وبينما كان الحاج عبد الجليلِ برفقة ثلاثةٍ من زملائهِ في العمل، كانوا يتمازحون فيما بينهم وينظفون إحدى الترع بالبلدة ،كان العمل شاقاً وقد اتسخت ملابسهم وقد كان للحاج عبد الجليل مكانتهُ بينهم فاقترح عليهم قائلاً: هيا نصعد نلتقط أنفاسنا ونحتسي كوباً من الشاي، وبينما هم كذلك إذ بأسعد قادماً من بعيد حاملاً كتبه وحقيبته يرتدي قميصاً أبيضاً وبنطالاً من الجينزِ الراقي، مهرولاً بخطواتٍ سريعة نحو والدهُ والشوق ينبض بداخله وتعابيرُ اللهفةِ تسود ملامحه وعينيه تلمع حنيناً "فتلك هي اللحظةُ التي لطالما انتظرها هو ووالدهِ طويلاً" برقت عينا عبد الجليل فرَحاً ما إن رأي ابنه يلوحُ له وجرت الدماء في عروقه.، فسرعان ما انتفضَ من مكانه واقفاً فتبعه أصحابه في دهشة ما بك يا عبدالجليل ؟

فإذا به منطلقاً نحو أسعد يردد باسمه غير مكترث بشيء غيره، كأنما خلت الدنيا إلا منهما !، كان أسعد يَصيحُ بأعلى صوته أبي لقد عدتْ، وعبد

الجليل يردد حمداً للهّ علي سلامتك، فما أن اقتربا حتى ألقى أسعد بكتبه أرضا فضمه والده بحنين بين ذراعيه وأخذه في عناقٍ طويل.

انتهى عناقهُما الحار بهتاف أسعد ممسكاً بيدي والده وهو يقفز في فرحة عارمةٍ لقد فعلتها لقد نجحت يا أبي لقد حصلت علي درجة الامتياز وحققت حلمك، فاحتضنه والده ثانيةً وبكي الاثنان مما أدى إلى بكاء الحاضرين.

_حمداً للهّ علي سلامتك يا بني لقد افتقدتك كثيراً.

_ وأنا أيضا يا أبي لم أكن لأنساك يوماً.

_أخذ والده ينفض عن ملابسه أثر الطينِ الذي أصابها في حرج قائلاً: ها هي ملابسك قد اتسخت أيها الطبيب، أرجو ألا تؤاخذني يابني!

_قبل أسعد يد والده ما هذا الذي تقوله يا أبي!؟ إنك رمزٌ للفخر وإنه لشرف أن يكون لي والد مثلك، ثم صافحه أصدقاء والده بحرارةٍ بالغةٍ وهنأوه على نجاحه وتمنوا له التوفيق.

_عادوا جميعا إلى القرية وسط حشدٍ من الأهالي فرحين بعودة البطل الذي لم يزده نجاحه إلا تواضعاً فلم ينسَ عناء والده وتضحيته إلى أن أوصله إلى

تلك المكانة العظمى، وحافظ على العيش الذي أكله في منزل ذلك الرجل فصار يفتخر بوالده وينسب له كل الفضل في نجاحهِ وتفوقه، انبعثت الزغاريدُ من بيوت القرية واجتمعتِ الأهالي وأقيمت الأفراح لثلاثة ليالٍ متواصلة فرحين بعودة أسعد ويسألونه عن طبيعةِ الحياة في أمريكا وماذا فعل هناك ؟

لم يتكبر يوما علي أحدهم ولم يمل من هؤلاء الفلاحين الذين يأتون كل يوم ويجلسون معهُ ويدعونه أيضا للجلوس معهم في حقولهم.

_ظل والده كعادته تجاه أسعد يطعمه أفضل طعامٍ ويلبسه أبهى ثياب، لم يهمل أمره يوماً ما لكنه بات يشعر منذ قدومه بأن هناك أمر ما يشغله.

_ماذا دهاك يابني؟ لا شيء يا أبي أنا بخير.

_لا شيء ماذا! أخبرني عمّ يشغل عقلك ؟

تنهد بهدوء: إنني الآن قد حصلت على الدرجات النهائية وقد أصبحت طبيباً ماذا بعد ؟

_بعد ذلك يقدر اللهّ كل شيء يا بني.

_حسناً يا أبي لكن مستر ريكسون قد نصحني بالسفر إلى السعودية لمدة عامٍ للتدريب حيث الأطباء الكفؤ.

_صاح والده لا يا بني لن تسافر ثانيةً .

_ولكن يا أبي إنني لا أملك حتى ثمن السماعة التي قد تساعدني في تشخيص ألم المريض، ولن آخذ منك شيئا ثانيةً، يكفيك ما قد أنفقته عليّ من قبل وأنا أرى ما نحنُ فيه الآن من ضيق العيشِ، إلى جانب زواج أخي عبد اللهّ.

_ضحك والده قائلاً دعها تمضي كما يريد اللهّ يابني أنا أعلم أنك ترغب في بناء مستشفى هنا أليس كذلك ؟

_بالطبع يا أبي ولكنها مجرد أحلام كيف يمكننا شراء أرضٍ وبناء مستشفى وإمداده بالأجهزة الطبية اللازمة؟ ..إلخ

_تنهد والده بهدوءٍ ألم أقل لك دعها للهّ فاللهّ يحسن تدبير أمورنا.

_حسناً يا أبي سأستأذنك الآن وأذهب إلى الكنيسة، فمنذ عودتي لم أزرها .

_ابتسم قائلا اذهب حيثما شئت. وتركه وذهب إلى أحد كبار المقاولين ليستفسر منه عن تكاليف ذلك المستشفى، وأسعد مازال حلمه يطارده ليلاً

ونهاراً ويطمئنُ نفسه بكلمات والده، إلا أنه يشعر بأن تحقيق هذا الحلم يبدو مستحيلاً، وفي اليوم التالي وجد رجلاً عجوزاً قادماً نحو البيت فاستقبله بترحاب قائلاً: هل لك من حاجة أيها الشيخ ؟

_نعم يابني إنني أسأل عن شاب يدعى أسعد هل تعرفه؟

_نعم ياسيدي إنه أنا تفضل بالدخول.

_لا يابني إن الأمر الذي أحتاجك فيه لا أريد أن أقوله أمام أحد.

_أي سرٍ ذلك ياسيدي؟!

_إن والدك ثابت قبل أن يموت قد ترك في رقبتي ديناً كبيراً وعجزت عن سداده، وقد أتيحت لي الفرصة الآن فجئت لكي أرد الحقوق لأصحابها سأله بدهشة أي دين هذا ؟!

_إنه مبلغ كبير يا بني، إنه مائة وتسعون جنيهاً.

_حدقت عينيه بدهشة يا إإلهي! هل تمزح أيها الشيخ؟

_ وهل في ذلك من مزحة يابني؟ لكنني لا أعتقد أن والدي ثابت كان يمتلكُ مثل هذا المبلغ الضخم! حتى وإن كان ما تقوله صحيحاً فما الذي يدفعك أن ترد مبلغاً كبيراً كهذا بعد كل تلك السنوات؟

_لأن الحقوق لابد أن تعود لأصحابها ذات يوم، ولقد بحثت عنك كثيراً خلال السنوات الماضية وبمجرد علمي بعودتك أحضرته إليك.

_وقف أسعد غير مستوعبٍ لما يحدث وهو ينظرُ إلى تلك الحقيبة التي أعطاها له الرجل وانصرف وهو يردد في نفسه إن هذا المبلغ كافٍ لتغطية تكاليف المستشفي بل يزيد، وأسرع إلى والده يخبره بما حدث، فاحتضنه والده بفرحةٍ ودهشة ألم أقل لك أن اللهّ يحسن لنا التدبير.

_حقا يا أبي أنا لا أكاد أصدق إنني حتماً أحلم، أليس كذلك ؟.

لا يابني ستبني أفضل مستشفى انظر ها هي الأمانة قد عادت لأصحابها بعد أكثر من عشرين عاماً.

_نعم يا أبي إنني أشكر اللهّ على نعمائِه، في مساء الغدِ وبينما كان أسعد يتجول بين الحقول لاحظ رجلاً يشبه ذلك الرجل الذي كان قد أعطاه الأموالَ يخرج من حقل والده بعد أن أعطاهُ والده شيئاً فهمّ أن يلحق به، لكن دون جدوى فذهب إلى والده وسأله من ذلك الرجل يا أبي؟ وماذا كان يفعل هنا؟

_أجابه بارتباك حاول أن يخفيهِ عنه، إنه عـابر سـبيلٍ وبحاجـة للمسـاعدة فأعطيته شيئاً يسيراً ابتغاء وجه اللهّ .

_لكنه يشبه كثيراً ذلك الرجل الذي أعطاني الأمـوال بـالأمس. _ضـحك ساخراً إنه رجل فقير يـابني ويسـأل النـاس الحاجـة أظنـه مجـرد تشـابه في الملامحِ لا أكثر، لم يقتنع أسعد بكلام والده وظن أن هناك أمراً ما، فـذهبَ يبحثُ بين الوجوه عن ذلك الرجل الغامض وهو يحادث نفسـه لا يمكـن أن يكون ذلك بمحض الصدفةِ، هناك شيء مـا لا أفهمـه !، أقبـل الظـلامُ وقد عزم أسعد ألا يعودَ إلي البيت قبل أن يجد ذلك الرجل، وظـل يلتفـتُ يميناً ويساراً علهُ أن يجد ضالته إلى أن رأى الرجل يخرج من المسجد الـذي يقع في الناحيةِ الأخرى من النهر، فأسرع إليه قائلاً أيا عماهُ أريد أن أسـألك شيئاً فاصطحبه الرجل إلي بيته القريب من المسجد .

_تحدث أسعد قائلاً أستحلفك باللهّ أن تخبرني الحقيقة.

_سألهُ مستنكراً حقيقة ! أي حقيقة هذه !

_هل هذه الأموالُ التي أعطيتني إياها ملكٌ لوالدي حقاً ؟ ضحك الرجـل قائلاً هل تظنني أُعطيك إياها من تلقاءِ نفسي؟

_إذاً لماذا كنت عند والدي عبدالجليل اليوم؟

_أجابه بحيرةٍ بالغة أنا لا أعرف عمّ تتحدث ولا أعرف من عبد الجليل هذا؟

_لقد أقسمت عليك أيها الشيخ أن تخبرني الحقيقة لقد رأيت والدي وهو يعطيك شيئاً ما وكنت جالساً معه في الحقل، ما إن رأيتني قادماً من بعيد حتي لُذت بالفرار.

_تنهد الرجل تنهيدة ارتياحٍ ما دمت قد رأيتني فليس أمامي إلا أن أخبركَ الحقيقة، إن عبد الجليل قد أعطاني تلك الأموال كي أعطيها لكَ، وهو من زعم تلك الفكرة بأن تلك الأموال لوالدكَ ثابت كي لا يصيبك الحرجُ ولكي تحقق حلمك وتبني ذلك المستشفى.

_تعجب أسعد وردد في نفسه أي قلبٍ ذلك الذي يضخ حناناً بهذا القدرِ! ويقدم درساً إنسانياً في الحفاظ على مشاعر الآخرين ممن ليسوا بأبنائهِ وأيضا على غير دينه.

_خرج مسرعاً وذهب إلى والده وظل يقبلُ قدميه وهو يبكي قائلاً لقد أخبرني العم ماهر كل شيء يا أبي، لمَ فعلت ذلك ؟

_مطّ شفتيه بغرابةٍ مصطنعة من ماهر هذا ؟

ذلك الرجل الذي اتفقت معه على كل شيء، لقد رأيتكما معاً لقد أخبرني بكل ما حدث، لماذا فعلت ذلك يا أبي؟

_انهالت الدموع من عينيهِ وهو يجفف دموع ولده، لقد فعلت ذلك كي لا يصيبك أدنى حرجٍ يابني ولكي يتحقق حلمك، وحتي لا يقول أهل البلدة أنني من فعلت ذلك وأنني من جعلتكَ طبيباً، اسمع يابني يجب أن لا يعلم أحد بهذا، لابد أن يعلم الجميعُ بأنها أموالُ والدك .

_قبل يده ورأسه قائلاً: أنت والدي حقاً بل ونِعم والوالد وأظن أن والدي إن كان حياً، فلم يكن ليفعل معي مثل ما فعلت، ولن يحفظ لي كرامتي مثل ما حفظتها أنت، حقاً إنها تعاليمُ دينٍ حنيف "أشهدُ أن لا إله إلا اللهّ وأشهدُ أن محمداً رسولُ اللهّ"

****

الفصل السابع.

تمسك أسعد بدينهِ الجديد لما رأي فيه من تعاليم عظيمةٍ ودعوة للتحلي بالأخلاقِ الرفيعة، وقد ضرب له والده بذلك أروع الأمثلة بما فعله معه ،كما كان يخصص له وقتاً يعطيه فيه بعض الدروس والقصص حول الإسلام لينشئ الدين بداخله نشأة سليمةً لا غبار عليها، فحافظ أسعد على تعاليم دينه الحنيف والتزم بحضور الندوات الدينيةِ التي تأمر بالعدل والإحسان وتنهي عن الفحشاء والظلم، فازداد إعجابه وتعلقه بهذا الدين القيمِ وعزم علي زيادة معرفته بتعاليمه والعمل بها، وسعادة الحاج عبد الجليل وإخوته به لا توصف .

كان عقب كل صلاةٍ يذهب والده ليلاحظ العمال والمشرفين علي بناء المستشفي الهائل والذي قد أمر الحاج عبد الجليل ببنائه علي باقي مساحة الأرض والذي كان قد تركها لحين عودة أسعد بعد أن باع ثلاثةُ قراريطٍ منها نظير سفره ودراسته.

_كانت أرض الحاج عبد الجليل تقع في الناحيةِ الشرقية من البلدة مما يعطيها مناخاً متميزاً فكان يشرف بنفسه علي البناء والتصميم ويعطي

أفكاراً تفوق أفكار المهندسين المهرةَ، فيتعجبون لشدة ذكاء ذلك الرجل البسيط ،أما أسعد فظل يحاول مراراً وتكراراً إقناع والده بأن السفر هذه المرة سيكون لمدة عامٍ واحد فقط، وأن ذلك العام سيُكسبه مزيداً من الخبرات خاصةً وأنه متفوق في علم النفس محباً له ويريد أن يجمع بين الجراحةِ العامة والطب النفسي- لإنقاذ الناس من الكبتِ في ظل الفقر والجهل المحيطين بهم .

_وافق عبد الجليل بالكادِ علي سفر ولده تلبيةً لرغبته، فسافر أسعد بينما ظل والده يراقبُ العمل ويعطي الحوافز والمكافآتِ للعمال تشجيعاً لهم وفي الوقت ذاته لم يقصر في عمله أبداً.

_وصل الطبيب أسعد إلى المملكة العربية السعودية وبعد الاطلاع علي أوراقه من قبل إدارة المستشفى، استدعته الملكة والتي بدورها قد أنشأته بعد وفاة زوجها فأوصته ببذل كل الجهد والتفاني في العمل لمساعدة المرضى، وبينما هو يستعد للتدريب العملي للمرة الأولي بعد أن خلع ملابسه وارتدى ملابس العمل برفقةِ إثنين من زملائه حديثي التخرج أيضا بانتظار حضور الأطباء القدامى الذين يتولون مهمة تدريبهم، فإذا بأجراس المستشفى تدق بعنف معلنة استدعاء الأطباء لوجود حادث

خطير لابنة رجل أعمال مرموقٌ، فسُرعان ما اجتمع أسعد وزميلاه، كانوا جميعاً في شدة التوتر إثر نزيف الدم الهائلِ ولكونهم حديثي الخبرة حاولوا استدعاء باقي الطاقم الطبي الأكثر خبرة .

هنا كانت الكارثة حيثُ أن الأطباء القدامى كانوا قد أعلنوا إضرابهم عن العمل لحين تعديل رواتبهم، فصرخ أسعد قائلاً: لا وقت لنضيعه الآن، إن المريضة في حالةٍ لا تحتمل الانتظار فلنطبق ما درسناه، بينما وقف الطبيبان الآخران ينظران ولا يحركان ساكناً من هول الحادث، تذكر أسعد كلمات مستر ريكسون "يجب أولاً إجراء الأشعة لمعرفة مدى الإصابة، وإن كان هناك نزيف فلابد من إيقافه أولاً حتي نحافظ علي سلامة المريض" فصرخ في الممرضات فلتستدعوا فني الأشعةِ فوراً ولتجهز غرفة العمليات في الحال لاستقبال المريضة، أُجرت الأشعة لها وتم تشخيص حالتها من قبل أسعد كالآتي:

"ارتجاجٌ في المخ يصحبهُ كدماتٍ في الرأس مما أدى إلى نزيفٍ داخلي إثر ارتطامها بزجاج السيارة، فتناثرت قطعاتُ الزجاج في منتصف جسدها العلوي وأصيبت بكسر في ساعدها الأيمن" فبادر أسعد بإعطائها حقنةً

لإيقاف النزيف وأمر الممرضات بتغيير ملابسها علي الفور، ومن ثم نقلنها إلي غرفة العمليات.

انتبه أسعد من أنها تعاني صعوبةً في التنفس فقام بتركيب جهاز تنفس اصطناعي لها وسط ذهول الطبيبان الآخران اللذان لم يبذلا جهداً سِوى تنظيف الجروح لبيان عمقِ الإصابات، أما هو فكان يخرجُ قطع الزجاج من جسدها ببراعةٍ فائقة ويطهر أماكنها ويضمد الجراح وكل ما يدور في رأسه كلمات الطبيب مانويل" أن المريض ليس زبوناً أو عميلاً ،المريض جزء لا يتجزأ من طموحاتك وأحلامك فمع كل مريض تنقذ حياتهُ تحظى بشعورٍ لا يمكن وصفه فالفرحة التي تتسبب بها في قلوب أهله والتي تستشعرها لحظة إنقاذه، لا تقدر بثمن ولن تدرك قيمتها الحقيقةَ إلا حينها فقط" .

_اندهشا الطبيبانِ وطاقم التمريض من جرأة ومهارة أسعد حتى قالوا أنه لا يمكن أن يكون هناك شخص حديث التخرج بمثل براعته، فلقد استطاع بشكل من الأشكال إخفاء خوفه وتوتره ووضعهما جانباً، وصب كل تركيزه على كيفية إنقاذ تلك الروح فهو يدرك جيداً أنه لا مكان للجبناءِ في تلك المهنة، وأن هذه هي اللحظةُ الحاسمة التي ستبرهن له أمام نفسه بل وأمام الناس جميعاً كونهِ طبيباً ناجحاً أم لا.

_أنهى أسعد العملية بنجاحٍ بعد مجهودٍ دام لأربع ساعات متواصلة، ليخرج بعدها لوالديها المنهارين تماما واللذان قد أصاب الذعر قلبيهما ليطمئنهما بأن اللهّ قد كتب لها عمراً جديداً .

_عانقه والد الفتاةِ بشدة وقد انهمر في البكاء، وظل يشكره كثيراً على مجهوده وسجد شكرا للهّ، كما انهمرت والدتها بالبكاء وظلت تشكره هي أيضا وتردد حمداً للهّ حمداً للهّ.

_وصل الخبر للملكة فأعجبت بجرأته كثيراً، وأبدت دهشتها من صنيعه وكيف أنه حديث عهد بالطب والجراحة ونجح بجدارة في واحدة من أكثر العمليات خطورة، كما أنها أول عملية يجريها بعد تخرجه! في حين رفض أسعد تلك المكافئة التي أعطاها له والد الفتاة فازداد إعجاب الرجل به بل وفخره أيضا عندما علم بأنه مصري الجنسية مثله، أخذ يتعارف عليه فعلم منه أنه تخرج من جامعة نيويورك الأمريكية التي تخرجت منها ابنته فقال: إن ابنتي المريضة هذه تخرجت لتوها أيضا من تلك الجامعة، ولقد أتت إلى هنا في بعثة للتدريب لمدة عام فرافقتُها أنا ووالدتها، لكن لسوء الحظ ارتطمت سيارتها بإحدى الشاحنات الكبيرة أثناء تجولها في شوارع المدينة.

_هنا أبتسم أسعد قائلاً: حمداً لله علي سلامتها، ثم سألت والدتها في لهفة هل يمكننا الاطمئنان عليها الآن ؟

_ بالطبع سيدتي، لكن لدي رجاء: عندما تستفيق ابنتك أرجوكِ أن تخبريها بأن من أنقذها هو ذلك الفلاح الفقير الذي يعمل والده في شق القنوات والترع.

_رفعت حاجبيها بدهشة ماذا؟ هل كنت تعرفها من قبل؟

_لقد كانت السيدة نورا زميلة لي وكانت دائما ما تسخر مني ومن أهل بلدتي متباهية بمكانتها الاجتماعية في كبر بالغ ،وكانت دائما ما تضعني محط سخريتها طوال تلك البعثة، لكن لا يهم كل ذلك الآن، ما يهم هو أنها أصبحت بخير، وبابتسامة نصر أردف سأستأذنك الآن.

****

أخذ الطبيب أسعد يراقب الحالة الصحية لنورا ويتفقدها بين حين وآخر فيأخذ عينات الدم في مواعيدها المنضبطةِ ويطمئن عليها يوماً تلو الآخر، إلى أن تحسنت حالتها الصحية وتماثلت للشفاء، أي ثمن قد يعوضه عن ذلك الألم الذي قد تسببت له به على متن الباخرة وطوال تلك الرحلة! بل

وأثناء الدراسة أيضا فلم تكن تكتفي بهذا فحسب، بل كانت تدعو صديقاتها للسخرية منه واحتقاره لتنهال عليه ضحكاتهن الساخرة وتلميحاتهن السخيفة يوما تلو الآخر بأنه من بلاد الفلاحين الجهلاء، بل أي شكر قد تقدمه له بعدما أنقذ حياتها ! فلم تكن لتجد من ينقذ حياتها خاصة بعد إضراب الأطباء عن العمل، ها هو الفلاح قد أصبح طبيبا وأنقذ حياتها.

_حين استفاقت وأخذت حالتها تتحسن أخبرتها والدتها أن من أنقذها هو زميلها في الدراسة ويدعى أسعد.

_سالت الدموع من عينيها العسليتين، شعور بالذنب والخجل تجاه ما فعلت، فلقد كانت شقراء تمتلك قواماً ممشوقاً وشعراً كستنائيّ اللون يتأرجح علي وجنتيها فيزيدها جمالاً على جمالها، كان أسعد يشعر بتأنيبها الدائم لنفسها فكان عندما يتفقدها دائماً ما يحاشي النظر إلى عينيها كي لا يصيبها الحرج.

_ذات يومٍ وبينما كان خارجا من غرفتها فإذا بها تنظر إليه وتناديه انتظر يا أسعد، فالتفت إليها بصمت فأردفت وقد حنت رأسها بخجل: أنا آسفة، وظلت تعتذر إليه قائلة أنا أعلم أنني جرحتك كثيرا طوال تلك السنوات

الماضية، صدقني إنني لم أكن يوما قاسية على أحد أو متكبرة بل إنني أمتلك بداخلي قلباً طيباً، لكنني تغيرت رغماً عني، لقد خذلني الجميع وإن بداخلي آلاماً عظيمة كنت أخفيها وراء تلك الضحكات، كيف لي أن أشكرك علي ما فعلته من أجلي؟

_ابتسم ابتسامة مصطنعة: لا يا نورا، بل أنا من عليه أن يشكركِ فكلماتك تلك هي من أوصلتني لهذا النجاح وأنبتت بداخلي تحدٍ وإصرارٍ عظيمين، ودافعا قوياً لأصل للقمةِ وها أنا ذا أمامك قد وصلت بالفعل والفضل كله يعود إليكِ عزيزتي، أخبريني ما أخبار نتيجتك؟

_أجابته بإحباطٍ لقد نجحت بتفوقٍ لكني لا أدري هل أتيت إلى هنا لأكمل تعليمي وأصبح طبيبةً تعالج المرضى، أم لأتعالج من الضغط النفسي الذي يمتلكني؟ لقد أصابني الملُ من الأطباء النفسيين وكلامهم المتشابه الذي لا يجدي نفعاً ولم أعد أعلم هل سأصبح طبيبةً حقاً؟ أم أن هذه فقط أوهام أعيشها وأرهق نفسي بها دون جدوى؟ لكن ما أعلمه حقاً هو أنني أصبحت مرهقةً للغاية.

_أجابها برفق أنت متفوقةٌ جداً يا نورا وستكونين طبيبةً رائعة، أما عن حالتكِ هذه التي تتعلق بالطب النفسي فاطمئني بشأنها سأتكفلُ بها إلى أن تصبحي على ما يرام ولا تقلقي أبداً، سأساعدك في التدريب هُنا قدر المستطاع، فأنت بمثابة أخت لي كما أننا أبناء بلدٍ واحد ونحن في الغربةِ سوياً ويجدر بنا مساندة بعضنا البعض، أليس كذلك ؟

_نظرت نورا إليه نظرةَ توقيرٍ واحترامٍ وأخذت تعود بالذكرياتِ إلى الوراء نحو أولئك الذين تسببوا بحفرِ تلك الندبات النفسية بداخلها، حقا هناك فرقٌ شاسع بين الأشخاص فهذا أسعد الذي لم تعطه إلا كل توبيخ وإهانة، هو الآن من يعتني بها ويساعدها في تخطي تلك المحنة، حقاً الناسُ معادن وفي أوقات الشدائدِ يُعرفون .

****

الفصل الثامن.

"الإخلاصُ في العملِ أحد أهم دوافع النجاح والمضي ـ نحو الأمام، فلن تصل إلى ما تحب حتي تحب ما تعمل به وإن كان غير مناسباً، فلا بد أن تقنع به وأن تثق بقدارتك الداخليةِ ولا تلتفت إلى أولئكَ الحمقى ممن يبثون الإحباط واليأس بداخلك.

فبداخل كل شخص قدرته الذاتية وطريقته الخاصةَ في التعامل مع الصعاب التي تواجهه في حياته وكيفية اجتيازها ،تدفعه هذه القدرة لتحقيق أحلامه والشعور بلذةِ النجاح.

فهذا الحاج عبد الجليل الذي ظل طوال حياته يعمل في شق القنوات والتُرع كان دائماً ما يوصي أبناءه بالتحلي بالصبر والإخلاص في العمل، ويخبرهم بأن القدر دائماً ما سيخبئ لهم الأفضل ما داموا يكسبون عيشهم من الحلال.

فقد أصبحوا من الأثرياء ولم يصلوا لما هم عليه الآن بمحضِ الصدفةِ أو من قبيل الحظ، لكنه جاء بعد أعوامٍ من التعب والجهد، وهاهم أهل البلدةِ الذين لم يعهدوا مثل هذا التقدم من قبل.

من كان يعتقد منهم بأنه سيكون لديهم مستشفى هائلٌ بهذا الرقي ومجهزٌ بأحدث الأجهزة الطبية بعد أن مات العديد منهم بفضل الخرافات والجهل!

بل من كان يصدق أن ثابت وزوجته اللذانِ لقيا حتفهما بسبب المرضِ، سيكون ابنهما من أعظمِ الأطباء يوماً!

بل ومن كان يتوقع أن عبد الجليل هذا الرجل الأميّ سيربي طفلاً ليس بابنه ويكون مصير هذا الطفلِ أن يصبح طبيباً ماهراً كالذي هو عليه الآن!

" الإرادةُ والثقةُ بالنفسِ هما ما يجعلان من الأحلامِ البعيدةِ واقعاً ملموساً"

فلتثق بقدراتك حتى تصل إلى ما تريد، ولتجعل من كلماتِ اليأس والإحباط سلماً تصعد به نحو القمة

****

في قِنا صمَمَ عبد الجليل المستشفى الضخم وجهزهُ على أعلى مستوى من حيثُ الرقيّ والجودةِ، ولم يبخل في بذل شيء نحوه، بل أنشأ بداخله حديقة كبيرة وغرس بها أجود أنواع الزهور الرقيقة والحشائش النضرة والأشجار.

يكفي المريض الجلوس فيها لدقائق معدودةٍ لكي يصير بحالة هادئةٍ ومستقرة.

وعن الأوضاعِ في المملكة العربية السعوديةِ فقد أصبح للطبيب أسعد مكانةً مرموقةً هناك بعد إنقاذ نورا ابنة رجل الأعمال المصري المعروف "محمود أبو ضِيف" وبعد أن صارت بفضله في حالة صحيةٍ جيدةٍ.

فكان لا يبخل عليها بمعلوماته حتى اكتسبت مهارةً كبيرةً هي أيضا، لكنها كانت بين حين وآخر يتملكها الاكتئاب وتزداد حالتها النفسية سوءاً فترتجف أحياناً وتصيح بعصبيةٍ في الجميع، أحياناً أخرى.

حينها أسند والدها إلى أسعد مهمة البحث عن طبيبٍ نفسي لها لثقتهِ الكبيرة به.

فأخبره أنه لا داعي لذلك وأنه سيتولى أمر علاجها بنفسه فعرض على والدها استئجار طابقاً مستقلاً بذاته في إحدى الفنادق الراقية لتنتقل إليه نورا وتستريح فيه بعض الوقت، بعيداً عن أجواء المستشفى.

رحب والدها كثيراً بتلك الفكرةِ وسرعان ما استجاب في تنفيذها خاصةً عندما أخبره أسعد بأن ذلك سيساعدها كثيراً في تصفية ذهنها من الضغوط واستجماع قواها مرةً أخري.

ارتدى أسعد ملابسهُ الراقية بعد أن خلع ملابس العملِ وذهب مع نورا إلى الفندق.

فما إن وصلاَ حتي اصطحبها إلى المطعم الخاص بالفندق حيثُ الهدوء والسكينة تعم أرجاءَ المكان، فقد امتلأت أركانه بالشموع المضيئة بجانبِ وجود شخص كان يعزف ببراعةٍ مقطوعةً موسيقيةً رقيقة على آلة الكمانِ في جو يبعثُ علي الهدوءِ والاسترخاء.

أراد أسعد أن يطلب لها وجبة الغداء بعد أن جلسا على الطاولة في مقابل بعضهما البعض.

لكنها أبت رغم إلحاحهِ الشديد وأخبرته أنها لا تقوى على أكل أي شيء الآن، فطلب من النادل أن يجلب لها كوباً من عصير البرتقالِ بينما طلب لنفسه فنجاناً من القهوةِ ،ثم التفت إليها قائلاً:

" أنا الآن لست طبيباً ولا زميلَ دراسةٍ، بإمكانك اعتباري المرآة الخاصة بكِ، فلتخرجي ما في جُعبتك وأنتِ على يقينٍ بأن كل كلمة ستدور بيننا لن يعلم أحد عنها شيء أعدُك بذلك"

_كان أسعد قد احتسَى بعضاً من قهوتهِ، بينما هي لم تذق شيئاً، ذاهبة في عالمٍ آخر، صامتة بلا جواب، فأخذ يوضحُ لها أن الحياة لا تقف على أحدٍ، وأنها لابد ألا تنظر خلفها مجدداً، فقد أدرك أن السبب وراء ما بها هو الوقوعُ في الحب.

اندهشت نورا لفطنةِ وذكاءِ أسعد غير أن شيئاً ما بداخلها يخبرها بأنه لا فائدةَ من التحدث، ولن يكون في النهايةِ سوى كلمات لا جدوى منها، ولسان حالِها يردد

"سأبكي في غرفتي وحيدةً كعادتي فلا داعي للحديث".

لم ييأس أسعد وظل يحاول مراراً وتكراراً إخبارها بأنه لا أحد يدوم لأحد أبداً، ولن يموت أحدٌ من أجل فراق أحد ويجب أن تنسى وتستكملَ حياتها و.....

قاطعتهُ بحدةٍ وقد خرجت عن صمتها المعتاد، لا أنت مخطئٌ أيها الطبيب هل تظنني على قيد الحياةِ الآن لأستكمل ما تبقي منها؟ إنني جسد بلا روح ،هل تظن أنه ما زالت بداخلي صفةٌ واحدة مما كانت بي سابقا؟

هل تظنني تركت بعضاً من مشاعري؟

لقد استنفذتها كلها، لا بد أنك لا تَعي ما بي حقاً "فلا يشعر بالحرب إلا الذي يخوضها".

_تنهدَ أسعد بارتياح عندما رآها قد بدأت أخيراً تُنبئه عما في قلبها، ثم نهض من مكانهِ وجلس على الكرسي بجوارها وأمسك بيديها وقبلهما قائلاً:

استمعي إليّ عزيزتي: أقسم لكِ أَنه لن يخرج حرفاً واحداً مما تقصين، أرجوكِ أكملي كي أقدرَ على مساعدتكِ، فلتسترخي وتغمضي عينيك وتقصين علي كل شيء ولا تخجلي .

لمعت عيناَ نورا، وتملكها الأمان باستماعها لكلماته وشعرت بحنانه وخوفهِ عليها ورغبته في مساعدتها

"فعلى الرغم من أنه لم يلق منها سابقاً سوى المهانة والتوبيخ، إلا أنه قد التمس لها الأعذار بعد أن اتضح له ما مرت به وجعلها تصبح يوماً هكذا".

فظلت تتساءل في نفسها وهي تنظر إليه نظرةَ امتنان: هل بقيت مروءةٌ وشهامةٌ في شباب هذا العصر!

لماذا يعاملني تلك المعاملةَ ويرد الإساءةَ بالإحسان؟ من يفعل ذلك ما هو إلا شخصٌ عظيم لأبوين عظيمين.

وتنهدت بألمٍ أتعلم يا أسعد ما فعلتهُ مع الآخرين ولم ألق منهم سوى ما لقيته هو ما جعلني أفقد الثقةَ تجاه الناس من حولي.

_إنني ألتمسُ لكِ العذر ولن تكوني مخطئةً إن لم تثقِ بي،لكن أصابع اليدِ مختلفة مع أنّ اليد واحدة لن يضركِ شيء إن تحدثتِ إليّ، بل بالعكسِ ما سيضركِ أكثر هو كل ذلك الكتمان، الكتمان يأكل الروح يا عزيزتي.

_تحدثت نورا بهدوءٍ بعد أن اطمئن قلبها إثر كلماتهِ: لقد تربيتُ في بيئةٍ رفيعةِ المستوى وأنت تعلم بأن أبي رجل أعمال كبيرٍ، ولم يكن يبخل عليّ

بشيء ، بل يأتي لي بالأشياء من دون أن أطلبها وأمي كذلك أيضاً كانت تحب إرضائي، ولم تمنع عني شيئاً يوماً فكانت كل طلباتي تُجاب.

وقد كان لدي ثلاث صديقاتٍ يدعين "سارة وبسمة ونُهى".

كُن يرافقنني دائماً وكنت متعلقةً بهن كثيراً، فلم أكن لآكل حتى يأكلن معي وحين أشتري ملابسي وغيرها من الأشياءِ كنت أشتري لهن مثلها، كنت معتادةً على ذلك بحكم ثرائِنا، وبينما كانت تلك الأشياء تبدو ثمينةً لهنّ بحكم مستواهن المعيشي المتوسط، كانت في نظري عاديةً جداً فلم تكن الأموال تشكل عائقاً بالنسبة لي، حتي إنني لا أستطيعُ أن أحصي القدر الهائلَ من الأموال التي قد أعطيتهن إياها من دون أي مقابلٍ، حينما كنّ يزعمن بأنهن يواجهن مشاكل وصعوبات في العيشِ، وبحاجة ماسةٍ لتلك الأموال فعلى الرغم من علمي بادعاءاتهن الكاذبةَ بخصوص هذا الأمرِ، إلا أنني كنت لا أكترث ولا ألقي لها بالاً.

لأنني كنت أشعرُ بالدفء معهن وائتمنتهن على أسرارِي وكل ما يخصني، لقد كنت مثاليةً معهن فلم أنس يوماً ذكري ميلادِ إحداهن أو أن أخصصَ حفلاتٍ أهاديهن فيها بأثمن الهدايا.

كان والدي يعلم أنني أحبهن كثيراً فلم يعارضني يوماً في أمر يتعلق بهن وبإعطائي لهن تلك الأموال، فلم يكن يهمه شيء أكثر من سعادتي، ولم يضجر من كثرةِ الأشياء التي كنت أشتريها، بجانب سيارتهُ التي كان دائماً ما يعطيني إياها لنذهب للتنزهِ سوياً.

إلى أن حلت الفاجعة! فلقد خذلنني بجدارةٍ في اليوم الذي من المفترض لهن أن يساعدنني فيه ويقفن بجانبي، كنت قد ربحت أخيراً في مسابقة للغناء والتي كنت أهوى الاشتراك بها منذ السادسةِ، وحُلمي بالفوز بها كان يكبر مع كل يوم يمر وقد تأهلتُ للمرحلة النهائيةِ وكانت نسبة التصويت لصالحي.

فلم تلبث سارة وبسمة أن سرقتا مني بطاقةَ الاشتراك الخاصة بي والتي من دونها لا يحق لي الاستمرار في المسابقة، كنت قد وضعتها على المنضدةِ بغرفة المعيشةِ بعد أن أريتهما إياها وأبديا كامل سعادتهما بي وهنآني لقبولي في المسابقة.

ثم ذهبتُ أطلب من والدي سيارته بعد إلحاحهما الشديد كي نذهب لنتنزه سوياً احتفالا بهذا الخبر السعيد، لكنني لم أتصور يوماً أنهما بكل هذا الخبث

كي يتآمرا علي ليسرقاها، في تلك الأثناء ومن ثم يذهبان بعدها للتنزه معي كأن شيئا لم يكن !

ظللتُ أبحث كثيرا عن تلك البطاقةِ ولم أجدها إلى أن انقضى موعد المسابقةِ فخسرتُ بالطبع.

ولقد أصابتني خيبةُ أمل كبيرةٍ حينما اكتشفت بمحض الصدفة خطتهما كي يسرقنها.

كان ذلك بعد مرورِ أسبوعينِ من خسارتي في المسابقةِ حيثُ كانت إحدَى الخادماتِ ما زالتْ عائدةً من أجازتها فقدمتْ إلى غرفتي لتناديني كي أتناولَ طعام الغداء، لم يكن البابُ موصداً فظلتْ تناديني وتطرقُ الباب بلطفٍ لكنني لم أُجبها.

فدخلتْ عليّ الغرفة لتجدني مستلقيةً علي سريري منهارةً بالبكاءِ وشبه غائبةٍ عن الوعي.

فمكثتْ بجانبي تواسيني وظلت تطلب مني أن أهدأ قليلاً وأن أخبرها ما الأمر؟

فأخبرتها بتحطمٍ أنني قد خسرتُ في المسابقة.

اندهشتْ كثيراً مما سمعتْ وسألتني كيف حدثَ ذلك يا سيدتي؟

إنكِ تمتلكينَ صوتاً عذباً وكل المؤشراتِ كانت تؤكد نجاحك، فأخبرتها أنني لم أكمل اشتراكي فيها لفقداني بطاقة التقدم للنهائيات.

_صمتتْ كأنها تستجمعُ ذاكرتها ثم سألتني هل كان لونها أصفر يا سيدتي؟

أجبتُها بلهفة نعم هل رأيتِها؟

نعم أتذكرُ أني قد رأيتُ السيدة بسمةَ والسيدة سارةَ وهما يخبئانها بخلسةٍ في حقيبة إحداهما في ذلك اليوم الذي خرجتنّ فيه سوياً للتنزه من دون السيدة نهى.

_ماذا! هل أنت متأكدةٌ من ذلك؟

بالطبعِ يا سيدتي لقد رأيتهما رأي العين.

_لم يكن لي أن أكذبها لأني لم أعهد عليها كذباً قط منذُ عملها ببيتنا، ولأنها لم ترَ تلك البطاقة من قبل، فلم تكن لتعلم لونها إلا لكونها قد رأتها حينئذٍ .

لم أستطع حينها من هولِ الصدمةِ أن أفسر ما حدثَ أو لم قد فعلن بي ذلك!

فلم تظهر عليهما يوماً حقيقة ما يخفيانهِ لي بداخلهما من أحقاد.

ولقد كانتا مدركتين مدى تعلقي بالغناءِ وحبي له، وأن كلي أملٌ في تحقيق حُلمي من خلالِ تلك المسابقة.

فسرعان ما عاتبتهما لماذا فعلتما بي ذلك! لماذا أنا! لماذا حرمتُماني من تحقيق حلمِ حياتي !؟

كنت بانتظار أن تعتذرَ لي إحداهن لكن أجابتِ الأُولي وما ينقصكِ؟ لماذا تطمعين في كل شيء؟

إن عندكم من الخدم والعمال والسيارات والشركات والأموال ما ليس عند أحدٍ، ألا يكفيكِ كل هذا؟

حدقت عيناي حينها بدهشةٍ فقد نزل كلامها عليٌ كالصاعقةِ وقلت: أنتِ تدركين جيداً أن المال لا يهمني ولستُ ممن يرغبون به، ألست تعلمين يا سارةَ أن هذا كان أكبر أحلامي لماذا حرمتني منه؟

وأنت يا بسمة لماذا فعلتي بي ذلك؟

ألست صديقتكما ورفيقة دربكما؟ هنا تبكي نورا بحرقةٍ وتتأوه ألماً ويعجز لسانها عن النطق بشيء من شدة البكاءِ، فيطلبُ منها أسعد أن تهدأ

ويعطيها كأس العصير بعد أن وَضع بداخلهِ قرصاً مهدئاً ويربتُ على كتفيها وماذا بَعد ؟

استكملت نورا حديثها: أجابت عليّ بسمةَ هي الأخرى قائلة استفيقي لنفسكِ لقد كنا نرافقكِ من أجل أموالكِ فقط، ولقد انتهت المرحلةُ الثانوية، الآن ستذهبينَ أنتِ إلي جامعة الطب وسنذهبُ نحن أيضا لجامعاتنا وتفرقنا السنواتُ والمسافات، وهذا ليس بالأمر المهم بالنسبةِ إلينا فلم يعد لنا حاجة بصحبتكِ.

صُدمتُ من إجابتها وقلت لها أنتِ تمزحين أليس كذلك؟

ألم نتفق على دوامِ الصداقةِ حتي ولو باعدت بيننا الجامعات! أخبريني يا سارةَ أنني أحلم، أخبريني أنني في كابوسٍ وسأستفيقُ منه وهيا اعتذرا لي وسأقبلُ اعتذاركما، بل لا داعي للاعتذار فلا اعتذار بين الأصدقاء ،هيا فلنذهب إلى بيتنا لنتناول الغداء كما اعتدنا سوياً ولا داعي للشهرة والغناءِ فليس كل ما يتمناهُ المرء يدركه .

قلت لهما تلك الكلماتِ بعد أن اصطنعتُ الثباتَ، ولكن من داخلي قلبي يكاد ينفطرُ ليس لأنني خسرت حلم حياتي فحسب، بل لأنني خسرتهُ على

يد أقرب الناس إليّ، ليس هذا فقط بل وعلى الرغم مما فعلته لأجلهما وبعد كل هذا أجاباني بوقاحةٍ " أنه قد زالَ الشيء الذي كانتا يرافقاني لأجله" وتركاني أبكي وحدي منهارةً إثر كل هذا.

صداقةٌ دامت لاثني عشر عاماً كانت تعتمد على الزيف والخداع طوال تلك الفترةِ، ولم أكن أدري كل ذلك لأجل ماذا؟ لأجل المال فليذهب المالُ إلي الجحيم.

أما الثالثة نُهى" فقد كانت في سفر مع عائلتها في تلكَ الأثناءِ ولم تشهد خيانةَ الاثنتين لي واعترافهما بخداعهما لي، فعندما قصصتً عليها ما حدثَ وما فعلاه معي احتضنتني وواستني كثيراً ووقفت بجانبي وظلت تُلقي عليّ عباراتِ اللومِ بأنني من كنت مثاليةً معهما، لدرجةِ أنني أصبحت ضعيفةً بينهما.

لحسن الحظ أنها دخلت معي نفس الجامعةِ فكنا لا نفترق أبداً بل ونقضي معظمَ فترة الإجازة سوياً. أصبحت لا أقدر على العيش بدونها، ساعدتني على نسيانِ الاثنتين بل ونسيان أيضاً حلميّ الضائع وفشلِي، لقد احتوتني وزملت قلبي العارٍ، وجعلتني أشعر بالراحةِ وأعادت إليّ الثقة التي افتقدتها لتشعرَني بأن الدنيا ما زالتْ مليئةً بالأشخاصِ الأوفياءِ.

لكنه لم يُكتب لي أن أسعدَ طويلاً فلم يلبث جُرحي الأول أن يطيب حتى استيقظتُ على طعنةٍ أخرى من نُهى لا يمكنُ شفاؤها، فبعد أن كانت قد أهدتني كل شيء، أخذت فجأةً كل شيء، لقد أخذَت حبيبِي !

****

الفصل التاسع.

بعد أيامٍ قليلةٍ سيكمل الأميرُ عبد اللهّ ولي العهدِ السعودي عشرـون عاماً، وهو الأمر الذي سيجعلهُ يتولى عرش ولايةِ "الرياض" بعـد ثلاثـةِ أعـوامٍ من وفاة والده .

لقد هرمت الملكةُ من انتظار هذه اللحظة، فكانت دائماً ما تعطيـه النصـائحَ العامة التي يحتاجُها في الحياةِ بجانـب نصـائح كثـيرةً تخـص الحيـاةَ الملكيـة وكيفية إدارتها والتـي بـدورها جعلتـه يتميـز بالـذكاءِ والحكمـةِ، بجانـب اكتسابه بعض الخبراتِ رغم صغر سنه.

_ في يوم التتويج المنشودِ تم تـزيين القصرـ في أبهـى مـا يكـون ثـم توالـت الزياراتُ والهدايا النفيسةِ من الملـوك الـذين أشـادوا بـوَليّ العهـد الجديـد متمنيين له مستقبلاً مشرقاً، لكن أعداء النجاحِ كثيرون في كل زمانٍ ومكانٍ فقد تجد بعض الناس تمتلئ قلـوبهم بالأحقـادِ تجاهـك ويبـذلون قصـارى جهدهم في سبيل أن يجعلوكَ فاشلاً، فإنك إذا ما كافحَت واجتهدت حتـي ارتقيت إلى القمةِ، لا تلبث حتماً أن تجد من يسـعى وراء إسـقاطك فنفسـهِ المريضة لن تقبل تفوقكَ عليهِ، ولن تَعي أنك لن تأخذ من رزقه مثقـال ذرةٍ

ولن تسلبه حظه حتي يصب عليك من الأحقاد كل ذلك القدر، فإنك إذا حلقت بأحلامك عالياً وعقدت كل عزمك للوصول إليها ووفِقتَ للنجاح تكون قد حصلت علي تلك المكانةِ بفضلٍ من اللهّ نظيراً لمثابرتكَ وسعيك، فلا تلتفت إلا لمن آمن بكَ وبأحلامكَ وبات يشجعك على الدوام، ويبثُ الآمال بداخلك كي لا تتخلى في لحظة تعبٍ أو كللٍ عن تلك الأحلام أو تنأى بعيداً عنها مستسلماً، فالفاشلونَ فقط هم من سيخبرونك دائماً بأن أحلامك مستحيلةَ الحدوث، ويسخرون منك لإحباطِ عزيمتك كي لا تتفوق عليهم يوماً ما أو تكونَ الأفضل. _امتلأت قلوب الكثيرين بالحقدِ والغلّ تجاه الملكة ونجلها فتآمر بعض الخونةِ على قتله، ففي يوم التتويج قاموا بتغيير طاقم الحراسةِ دون علم الملكةِ واستبداله بطاقم آخر ممن جرت الخيانةُ بدمائهم ولم تشغلهم سوى الأموال.

كانت نورا قد بدأت تتقبلُ كلمات أسعد وتتحسن حالتها الصحيةِ بعضَ الشيء، ولم يكن يرغب أسعد في أن يخرج ذلك الكم الذي يتملكها من الضغط النفسي دفعة واحدةً، بل أراد أن يأخذ الأمر برويةٍ وحذرٍ أكثر ويسير في طريق علاجها بخطةٍ ممهدة، ولحسن الحظ أنه سرعانَ ما وجد ما يخدم خطته تلك فقد سمحتِ الملكةُ للأفرادِ خلال دعوتها لهم باصطحاب

كل فردٍ لفردٍ آخر معهُ إلى الحفل فاستغل أسعد تلك الفرصةَ الثمينة في التنفيسِ عن نورا، وإخراجها مما هي فيه، فدعاها إلى ذلك الحفل عله يكون سبباً في رفع معنوياتها والتخفيفِ من ذلك الحمل الذي على عاتقها، قبلت نورا دعوةَ أسعد وسُرت بها كثيراً خاصةً بعد أن شجعها والديها على الذهاب معه فقد أصبحا يثقان به إلى حدٍ كبير، فعرض أسعد على والدها أنه سيمر بنفسه، ليصطحبها معهُ للحفل لكن والدها اقترحَ عليه أن يوصلها بسيارته لقصر الملكةِ تقديراً له على مجهوداته كما أخبره أنه لا يريد أن يكلفه عناء. ها قد أتى يوم التتويجِ وكانت الملكة قد أعدت حفلاً ملكياً مهيباً حضر إليه أفراد العائلة الملكيةِ وكثيراً من الملوك، والأمراء ورجالِ الأعمال، وأشهر الأطباء. الآن يتقدم الأميرُ عبد اللهّ بكامل أناقتهِ ومن خلفه يسير طاقم الحراسة الملكيّ الجديد وتبدأ مراسم تتويجه، فوضعوا التاج فوق رأسه وتم إعلانه الملك الجديد للمملكة ومن ثم جلسَ متربعاً علي عرش والده، وبجانبه تجلس والدته في مشهد رائع من تصفيقِ الحضور وتهنئتهم.

_كان أسعد قد ارتدى بزةً سوداء أنيقةً، بينما ارتدت نورا فستاناً رائعاً جعلها تبدوا كالأميرات فما إن رآها أسعد حتي أبدى إعجابه بطلتها التي تخطف الأنظار، فابتسمت ابتسامة رقيقة وشكرته بخجل.

وصل أسعد ونورا للحفل سوياً وشهِدا معا لحظات التتويجِ العظيمة وكان قد لاحظ أنها تضع بعضاً من مساحيق التجميلِ، فضاحكها بلطفٍ ألم نتفق علي عدم وضع أياً من مساحيق التجميل ثانيةً؟

_ضحكت ضحكة رقيقة: بل اتفقنا على التخفيف منها فقط أيها الطبيب.

_لكن الجمال الطبيعي يكمن في روح الشخص وبساطته، إن طبيعة الشخص تبدو أجمل عندما يكون تلقائياً، أليس كذلك؟

أجابت مبتسمةً أوافقكَ الرأي ياسيدي، سأذهب إلي المرحاض لأزيله بالكامل.

_ابتسم ابتسامة واسعة الثغر حسناً سأنتظركِ هنا، وبينما هي بالداخل إذ سمعت شخصاً يهمسُ عبر الهاتف قائلاً: أريد أن ينسفه الرصاص نسفاً لا أريد جزءاً واحداً من جسده لم يصبه الرصاص، يجب أن تعلم الملكةُ أن ولدها سيبيتُ في قبره هذه الليلة، فلتستعدوا فوراً ،عشؤ دقائق من الآنِ

ونطلق النيران ، لقد أقمنا فخاً في المكان وانتشر باقي الرجال سنقتل بلا تفكيرٍ أي شخص قد يعترض طريقنا، هيا أغلق الآن.

_ قطبت وجهها بدهشةٍ وباتت ترتجف من الفزع وهرولت مسرعةً إلى أسعد قائلةً: هناك مؤامرة تحاكُ الليلة لاغتيال الملك، هيا بنا فلنغادر المكان يا أسعد.

_أجابها على الفور بدهشةٍ قد اعتلت وجهه، ماذا؟ لا يمكن هذا! ما الذي تقولينه يا نورا؟ لا يمكن أن نترك الملكَ يلقى حتفهُ ونرحل هذا مستحيل!

_ إن لم نفعل ذلك ستوافينا المنيةُ نحن أيضا، كيف لكلينا فقط إيقاف تلك العصابة المسلحةُ بأكملها هذا خطرٌ علينا، بل ما يزيد الأمر خطورةً كون الخيانة آتيةٌ من داخل القصر ومن المقربين لدي الملكةِ وولي العهد، كما أنه لم يتبق الكثير من الوقت لينفذوا خطتهُم تلك، فلنرحل يا أسعد لا علاقة لنا بالأمر.

_أجابها بغضبٍ ما الذي تقولينه يا نورا، لا علاقة لنا كيف ؟ إن المروءةَ تظهرُ وقت الشدائدِ وإنسانيتنا تستوجبُ علينا التدخل والمساعدة لا الهروب، حتى وإن كانت أرواحنا ثمناً لذلك، كما أن للملكة فضل عظيم

على كلينا ولا يسعني أن أراها تحترقُ ألماً لفقدان ولدها، كما لا يسعني ترك تلك الأرواح تُزهق سُدى بينما أقف مكتوفَ الأيدي لا أحرك ساكناً، نحن أطباء لننقذ الأرواح أم لنشاهدها وهي تزهق؟ إن كان يتوجب علينا أن نرد لها الجميل يوماً، فها هي الفرصة قد أتت الآن.

_ طأطأت نورا رأسها خجلاً أنت محق بالتأكيد لقد أصابني الفزعُ من كلمات الرجل بالداخلِ مما جعلني أفكر بأنانية، أنا معك يا أسعد، ولكن فلنسرع لأنهُ لم يتبق لدينا الكثير من الوقت فالساعةُ الآن السادسة والنصف وقد سمعته يقول أن اغتيال الملك سيقع في غضون دقائق من الآن، إن لم نفعل شيئاً خلال الدقائق القليلة القادمة سيكون الملكُ قد لقي حتفه حتماً.

_وقف أسعد يفكر في كلماتها وعمّ الصمت لدقائق قليلة ثم أردفت نورا مرة أخرى بتوترٍ قائلة فلنذهب ونخبر الملكة على الفور، فأجابها أسعد وقد برقت عيناهُ وهو يخفض صوته: لا، لا يمكننا ذلك، إن فعلنا ستبدأ الملكة في الصراخ واستدعاء هؤلاء الحراسِ وبذلك نكون قد سهلنا عليهم مهمتهم في اغتيال الملكِ وقد يقتلون الملكة أيضاً.

تابعت بذعر بدا في عينيها: أنت محق يا أسعد لن يجدي هذا نفعاً فالتوتر يتملكني الآن ولا يجعلني أفكر علي نحو جيد، أخبرني إذاً ماذا سنفعل؟

_يجب أن ينام هؤلاءِ الجبناء، سأكلفكِ بمهمة يجب أن تحضري خمسةَ أكواب من العصير وأنا سأحضر الأقراص المنومةَ لنضعها في العصير، وبابتسامتك الفاتنة تجعلينهم يشربونها.

_لكنني خائفة للغاية.

_لا وقت للخوف يا نورا فلتسرعي ولا تقلقي فأنا هنا بجانبك.

_جمعت نورا أكواب العصيرِ الخمسة من صوانٍ كانت قد قدمت لبعض ضيوف الحفل والتي وزّعت على أكثر من منضدة ، ووضعَ بها أسعد الأقراص المخدرة فاستجمعت شجاعتها وذهبت لتقديمها للحراس وبابتسامة ساحرة منها وبعض الدهاءِ، استطاعت إتمام المهمةِ على أكمل وجه.

تذكرَ أسعد أن هناك شخص ما هو الأهم بينهم وهو قائدُ الحرسِ الذي كان يتحدث عبر الهاتف، فأمر نورا بالوقوفِ عند باب القاعةِ بينما ذهب هو ليقف بجوار الملكِ، بعد أن أمر نورا بمحاولةِ إيجاد ذلك القائد وإلهائه

عن مهمته قدر المستطاع وطلب منها توخي الحذر جيداً وتشير إليه إذا ما طرأ أمر ما.

انطلقت نورا في مهمتها لاكتشاف القائد كما طلب منها أسعد، وبينما هو واقفاً بجوار الملك إذ استطاع بشكل خفي التواصل مع فريق الشرطةِ الموجود بالحفل والذي بدورهِ تواجد منذ البداية لمراقبة الأجواء، ولحماية القصر بجانب طاقم الحراسة الخاص بالملكة، ظلت نورا تلتفت من حينٍ لآخر وقد بلغ منها الخوف مبلغا عظيماً.

كان قد ظهر أثر المخدر جلياً على طاقم الحراسةِ وأصابهم دوار شديد فظلوا يتمايلون ممسكين برؤوسهم إلى أن سقطوا على الأرض مغشياً عليهم، لم ينتبه جميع من بالحفل للأمر، لكن نورا انتبهت لذلك كما لاحظت شخصاً يقف في أحد الأركان وقد بدر عليه الانتباه للأمر أيضاً وظهرت عليه جلياً علاماتُ الريبةِ والقلق، فكان كثيراً ما ينظر حوله كما لو أنه قد عزمَ على فعلِ شيء ما، فغمزت نورا بعينيها لأسعد ووجهت بصرها نحو ذلك الرجل في إشارةٍ منها بأن ذلك هو القائد.

ما لبثَ أن تحرك أسعد من مكانه حتى أخرج الرجل يده من معطفه وقد حمل مسدساً، وهم ليصوبه تجاه الملكِ بينما كان الجميع منشغلاً بالحفل عدا أسعد، ونورا التي قد تعمدت المرور أمامَ ذلك الرجل والاصطدامَ به لتعطيلهُ فضلاً عن ارتجافها، تمتمتْ بذعر عذراً ياسيدي لم أكن أقصد، فأزاحها بيديهِ بغضب شديد اغربي عن وجهي وصوب مسدسهُ نحو رأس الملكِ وأطلق النار.

****

الفصل العاشر.

ينتظر الحاجُ عبد الجليلِ وزوجتهُ عودةَ أسعد بفارغِ الصبر كي يفتتح المستشفي الهائلَ والذي هو علي أُهبة العملِ الآن، وقد بقي شهرٌ واحدٌ فقط على عودته، لكن الأيام تمرُ بصعوبةٍ بالغةٍ علي والدتهِ التي أنهكها التعبُ الشديدُ في الآونةِ الأخيرة، فدائماً ما تشتكي من آلامٍ في بطنها وأسفل ظهرها، قد تأخر شفائها وأوشكت على الهلاك، والحاجُ عبد الجليل يتوسل إلى اللهّ ويدعوه أن يشفي له زوجتهُ ويعافيها، فدعواتهُ لم تنقطع عنها يوماً منذ أن أصابها المرض، فقد كافحت معهُ وتحملت الكثيرَ من أجله فلا يقوى على رؤيتها تتألم، قد أصبح الآن يمتلكُ المال والمشفى لكنه لا يستطيعُ علاجها لتأخرِ الطب ولسوء حظه أن موعد سفرهما لبيت اللهّ الحرام لأداءِ فريضة الحج سيكون بعد عودة أسعد مباشرةً، لطالما كان عبد الجليل يتمنى ذلك وهو أن يُيَسر اللهّ له ولزوجته الذهاب للحج سوياً، لكنها لن تستطيع السفر لشدة مرضها ولسوء حالتها الصحيةِ يوماً تلو الآخر.

_ كانَ عبد الجليلِ راضياً بقضاء اللهّ وأنه سيذهب لأداء فريضةِ الحجِ بدون رفقةِ زوجتهِ، لكن ما كان يرهقهُ ويؤلم نفسهُ هو اشتداد المرضِ عليها، فكان يسهرُ بجانبها ويمسك بيديها قائلاً: لا يا أم عبد اللهّ، يجب عليكِ أن تقاومي فأنت العمودُ الذي يقومُ عليه هذا البيت، أرجوكِ فلتصمدي ألا تدركينَ أنه لا قدرة لي على فعل شيء بدونك! ويبكي بحرقةٍ بجانب تلك الوردةِ التي تذبلُ كل يوم في انتظار الموت، وهو يقف مكتوفَ الأيدي، ماذا بوسعهِ أن يفعل لها سوى الدعاء؟ إلى جانب محاولاتهِ في التخفيفِ عنها بقوله أن ذلك المرضَ ليس بالأمرِ الخطير، فما هو إلا بعض التهاباتٍ في المعدةِ وستتعافين منها قريباً، لكنه يدرك بين خبايا نفسه، أن ما تعانيه شديدَ الخطورة، نظراً لما يرى من معاناتِها فهي لا تستطيع النوم جيداً، كما لم تعد تأكلُ شيئاً، مرتِ الأيامُ ولم يبق سوي أسبوعٍ واحد على عودةِ أسعد من السفر، ليسافر والداهُ في اليوم التالي.

ظل عبد الجليل قلقاً ومشتت الذهنِ فترددُ بداخلهِ تارةً مخاوف من أن أسعد قد لا يستطيعُ معالجةِ والدته، حيث أن المستشفى بات مجهزاً بأحدثِ الأجهزة، لكنه لا يمتلكُ الخبرة الكافيةَ بعد فهو لا يزال حديثَ التخرج، وتارة أخري تمتلئُ نفسه أملاً بأنه سيعتني بها جيداً، وسيكون جديراً

بمعالجتها خاصةً بعد أن حصل علي درجة الامتياز، لم يكن أمام عبد الجليل سوى تسليم أمره للهِّ بالدعاءِ والانتظار، وظل يردد اللّهم أنت الرحيمُ المنعمُ، أسألكَ يا شافي يا معافي أن تشفيها وتعافيها من كل مكروهٍ وسوء، ثم يذهبُ في البكاء

*****

أُطلقتِ الرصاصاتُ تجاه الملكِ لكن أحاطت بهِ القدرة الإلهيةُ في لمحِ البصر، فقد كان رد فعل أسعد أسرع نظراً لاستعداده فجذب الملكَ من ياقتهِ وطرحهُ أرضاً، في حين حملت نورا مزهريةً بيدها وانهالت بضربةٍ على رأسِ ذلك الرجل، لكن لسوء الحظِ لم تكن تلك الضربةُ كافيةً لإفقادهِ الوعي نظراً لخوفها الشديد، استدار نحوها بغضبٍ وهمّ بإطلاق الرصاصِ عليها وسط صرخاتِ الحاضرين في فزعٍ وهروب معظمهم، فأسرعَ رجال الشرطةٍ مصوبين أسلحتهم نحو الرجل مهددين إياهُ بترك سلاحهِ ووضع يديهِ خلف رقبته معلنا استسلامه، لكنه لم يفعل وبالغ في عناده فأسرع أسعد وتعلق برقبتهِ فاختلّ توازنه وسقطا سوياً علي الأرض، في تلك اللحظات أسرعت الشرطةُ وأمسكت بالسلاح الذي كان يحمله وكبلت يداه خلف ظهره واعتقلتهُ علي الفور، بعد أن كانت قد اعتقلت

باقي الخمسة رجالٍ الآخرين فور إغمائهم، تم أخذهم جميعاً للمحاكمةِ وتمت معاقبتهم بالسجن المشدد، أما الملكُ والملكة فتقدما بخالصِ الشكر إلى أسعد ونورا وأهدتهم الملكةُ وسامَ الشجاعةِ وبعض الهدايا النفيسة، بعدها أمر الملكُ أن يُجهز له مستشفى بالمملكةِ خاصاً به، وأن تكون نورا مساعدته في إدارته، لكنهُ رفض معتذراً بأن هناك طريقاً طويلاً بانتظارهِ، فأمامه مستشفى ينبغي عليه افتتاحه ببلدته، وأهالي تلك البلدةِ الذين شجعوهُ على الدوام، ووالدهِ الذي ضحى من أجله وبذَل كل ما هو غالٍ ونفيس من أجل أن يصبح طبيباً هم أهم أولوياته، امتدحتهُ الملكةُ وأثنت عليه أفضل ثناءٍ، أعجبت نورا كثيراً بإخلاصه وأمانتهِ وأيقنت بأن العالَم ما زال به أناسٌ خيرين، فاهتمامُ أسعد بها على الدوامِ ومساعدته لها بأن علمها الفروسيةَ وبعض الرياضاتِ، إلى أن شُفيت تماماً، كل ذلك زاد من تعلقها به فحزنت كثيراً لأن البعثةَ قد أوشكت علي الانتهاء وأنه سيبتعد عنها.

اقترح أسعد عليها بأن تسافرَ معه إلى بلدته لا فتتاح المستشفى الجديد، ولأنه بحاجةٍ إليها لمساعدته في معالجةِ أهل بلدتهِ فوافقتْ على الفور.

أرسلت الملكةُ معهما بعض الممرضاتِ ليعملنَ في المستشفي تحت إشرافهما إلي جانب خادمةٍ لخدمتهنَ ورجلينِ قد كلفتهما بمهمةِ إيجادِ منزلٍ جيدٍ

بمصرَ لهؤلاءِ الممرضاتِ لكي يقمنَ فيه، وتكفلت بجميع أمورِ عودتهم للبلادِ من حيث تكاليفَ الرحلة، إلى جانبِ تزويد المستشفي بكل ما يحتاجه من إمدادات، كما وعدتهم بزيارةٍ قريبة للمستشفى، أقلعتِ الباخرةُ من الميناء بهدوءٍ وعادت إلي مصرَ في حينِ وقفت الملكة ونجلها الملكُ عبد اللهّ مع الحاشية، يودعونهم حتى غابتْ عن الأنظار.

****

في طريقِ العودةِ إلى مصر ـ صعد أسعد ونورا مساءً إلى سطحِ الباخرة يتناولان كوبان من القهوةِ الساخنةِ، ويستمتعان برؤية مظهر المياهِ الساحر ودفءِ الغروب، ترجع تلك الفكرةِ لأسعد حيث كان كعادته لا يترك ثغرةً واحدة قد تخفف من الضغط النفسيّ عن نورا، إلا ويجاهد كي يمحيها من داخلها.

_التفت نحوها بهدوءٍ ثم قال: نورا أنتِ الآن قد شفيتِ تماماً وأصبحتِ طبيبةً ناجحة ومتفوقة، عليك المحافظةُ على ذلك فلا يليق بنا معشر الأطباءِ أن نستسلم لليأسِ أبداً، فلقد حمّلنا اللهّ أمانةً عظيمةً وهي أرواح البشرِ، فلا

بد وأن نكون أهلاً لها، يجب علينا أن نفرقَ بين عالمنا الخاص وبين المهامِ الصعبةِ التي اختارتنا الأقدارُ لها أليس كذلك؟

تنهدت نورا تنهيدةَ ارتياح: أنا أفهم كل ما تقصده يا أسعد، لكن لا تنسى أننا بشر أيضاً نتألمُ ويصيبنا الضعف بين حين وآخر.

_بالطبعِ يا نورا فالهدف الأسمى من تلك المهنةِ، هو أن لا ننسى كوننا بشراً، لذا يجب أن تفوقَ إنسانيتنا كل شيء.

_أنت محق يا أسعد.

_ إذاً لتكنْ هذه آخر مرة نجلس بها جلسة علاجية، فلتخرجي ما تبقى لديك من خذلانٍ أصابكِ فسنكون طبيبان لمستشفى ضخمٍ فلنكنْ على قدر المسؤولية.

_ أخذتْ تتنفس شهيقاً وزفيراً كما لو أنها تستجمع قواها وأردفت بحزمٍ: حسناً يا أسعد.

كنت قد أخبرتك من قبلُ عن نُهى بأنها قد أهدتني كل شيء وشعرت بجوارها أنني شفيت من جِراح الماضي، لكنني استفقتُ على صدمة أخرى منها فظننت أن لا شفاء لي بعدها أبداً، إلى أن حظيت بك، لقد كان هناك

شابٌ من بلدتنا في الخامسةِ والعشرين من عمره يدعى (خالد) تخرج من كلية الصيدلةِ وأكثر من مرةٍ تقدم لخطبتي لكن والدي ظل يرفضه علي الدوامِ، لانخفاض مستواه المادي مقارنةً بنا، ولأنني كنت لا أزال صغيرةً لا أدرك شيئاً، كنت أرى تمسكهُ بي وإصرارهُ عليّ ومحاولاته الكثيرة في التحدث إلي وإخباري بكل مشاعره تجاهي، حباً كبيراً وصادقاً، فتشبثت به وأقنعت والدي بالكاد أن يعطيه فرصة حتي يكون نفسه وبعد ذلك تتم خطبتنا، وافق أبي على مضض عندما رأى تعلقي الشديد به ولم يكن يريد كسر قلبي، دامت علاقتنا لسنة كاملةٍ أعطيته خلالها حباً جماً، كما كنت أعطيهِ الأموالَ دون علم أبي حتى تمكن من إنشاء صيدليةً خاصةً به، ظللتُ واقفةً بجانبه ضد الجميع بل ضد أبي الذي لم أكن أعترض على قرار له ابداً، لكن ما لبثنا أن حدثت بيننا بعض الخلافات في أمورٍ بسيطةٍ لا تكاد تذكر ، كنت دائما ما أقترح عليه أن نهدأ ونتناقش في الأمر لكني لاحظت أنه لا يريد بذل أي جهدٍ لإرضائي، أو حتى يحاول الوصول لحلٍ بيننا، بل كان دائما ما يختلق المشكلات، ويزيدُ من عمق الفجوةِ دون أدنى سببٍ يستدعي ذلك، فكنت بحماقةِ طفلةٍ أتوسل إليه باكيةً من أجل ألا يغضب،

لم أكن أدرك أن الاهتمام المفرطَ يـؤدي إلى الإهمـالِ "وأن كثـرةَ المـاء تقتـلُ الورد" حتى أصبح لا يجيب على هاتفي !

حينها لجأتُ إلى صديقتي نُهى، فلقد كنت اراها مأمنِي وموطنِي فقصصـت عليها الأمر فأخذت رقم هاتفه مني على زعمِ أنها ستصلح مـا فسـد بيننـا، وهي تحيك بداخلها أمرا آخر تماماً.

مضى اليومُ الأول ولم تخبرني بما حدث، فقمت بالاتصـال بهـا مـراتٍ عـدة لكنها لم تعد تجيب على هاتفي أبداً، في بداية الأمرِ ظننت أنه رفض الرجـوع إليّ، وأنها تخشى إخباري بذلك، لكن الأيـامَ مضـت ونُهـي لا تجيـب عـلى هاتفي، كما لا يجيب خالد أيضاً ممـا زاد جنـوني وقلقـي فـذهبتُ إلي منزلهـا لأرى تلك الفاجعة التي شطرتْ قلبي نصفين، مراسم حفلٍ وأنوارٌ معلقة، فحين هممتُ بالدخول وجدت نُهى ترتدي فستانَ خطبةٍ وخالد بجوارها.

لم أستطع تمالك نفسي حينها وانهمرت دمـوعي دون أن أشـعر "لقـد كانـا جرحين عميقينِ لا قدرةَ للأطباء علي وصـف دوائهـمَا، مـا كـان لقلبـي أن يستحق كل هذا الألم بعد كل ما قدمتهُ، فسقطتُ مغشيةً عليّ بـلا حـراك، لم أستفق إلا بعد يومٍ لأجد نفسي بغرفتي تبكي أمي بجانبي وأنا لا أقدر عـلى النطقِ من هولِ الصدمة.

أتعلم يا أسعد ؟ أنا لم أحزنْ لخيانته لي قدر ما حزنت على مع مَـن خـاننِي، ومن يومها تحولت براءةُ نورا من طفلةٍ تحب الجميع إلى فتاةٍ متعجرفةٍ قاسية القلبِ، لا ترى البشرَ سوى أنهم ذئاب بشرية لا أمان لهم.

ذرفت الدموع من عينيّ أسعد فقبل رأسها قـائلاً سيعوضـك اللهّ خـيراً يـا نورا، إنك فتاةٌ جميلة والآلاف يتمنون إشارة واحدةً من إصبعك، جمـيعهم لم يكونوا يستحقونكِ فابعدهم اللهّ عنكِ فلا تحزني.

ابتسمت بخجلٍ لقد عوضني اللهّ فعلاً بوجودك يا أسعد فلولاكَ مـا كنـت قد بقيت على قيد الحياةِ الآن، أو لكنت أصبحت فتاةً شريرة لا ترحم أحداً ، اطمئن أيها الطبيبُ فالقوةُ قد سَرت في عروقي مجدداً، وبفضـلكَ نسـيتُ كل شيء بإمكانك الاعتماد عليّ الآن.

ابتسم أسعد قائلاً: وهذه نورا الطبيبـة المتفوقـة والقويـة التـي أريـدها أنْ تكون، استعدي فهناكَ مهامٌ تنتظرنا .

****

الحادي عشر .

عادَ أسعد إلى بلدتهِ وبصحبتهِ نورا والرجلانِ اللذانِ أرسلتهما الملكة، وطاقمَ التمريضِ والخادمة الخاصةَ به، ليجدَ الفريق الطبي أولَ مهمة بانتظارهِ وهي معالجةُ والدة أسعد من مرضها الذي كادَ أن يفتك بها، فلم تعد تقدرُ علي الحَراك.

قابلهُ والده وإخوتهُ بلهفةٍ بعد أن غابَ عنهم طويلاً واحتضنهُ والده بشدةٍ، ودموعُ الفرح تنهمر على خديه، قبلّ أسعد يد والدهِ وعلى غير العادةِ لم يجد والدتهُ بانتظارهِ باعثةً الزغاريد مثلما فعلتْ في المرةِ الأولي، كان الحاجُ عبد الجليلِ قد اشترى منزلاً جديداً بجوار منزلهم ليعيش فيه أبناءهُ الستةَ سوياً ومن بينهم أسعد، وكما ليتزوجوا فيه أيضاً، لكنه وزوجتهُ أَبيا أن ينتقلاَ إليه رغم إلحاحِ أبناءهما الشديدِ عليهما وإخبارهما بأنه قد باتَ منزلاً قديماً ومتهالكاً، لكنهما فضلاَ المكوثَ فيه قائليّن: بأن ذلك المنزل القديم هو من كانَ شاهداً علي كفاحِهما معاً على مر السنوات، وعاشَا فيه أجمل الذكرياتِ وأنهما لن يتركاه أبداً حتي المَمات.

قدّم أسعد نورا إلى والدهِ وإخوتهِ قائلاً : الطبيبة نورا أبو ضِيف زميلتي في البعثةِ، ومن أكفأِ الأطباء، كما قدم إليهم أيضا طاقم التمريضِ والخادمة والرجلانِ اللذان أرسلتهم معهم الملكة ، رحبَ الحاجُ عبد الجليل وأبناءهِ بهم بحرارةٍ ودعوهم إلى منزلهمُ الجديد، والذي يقعُ على مقربةٍ من المنزل القديم لكي يرتاحوا جميعاً من عناء السفر، ولكونه كبيراً وسيتسع لاستقبالهم جميعاً مقارنةً بالآخرُ لحينِ أن يجد الرجلانِ منزلاً جيداً للممرضاتِ لكي يقمنَ فيه كما أمرتهم الملكة، ومن ثَم يعودانِ للسعوديةِ مرةً أُخري، استجاب له إخوتهُ على الفورِ وقاموا باصطحابهم إلي منزلهم بترحابٍ شديدٍ، ولكن من دونِ نورا. فقد أخبرتْ أسعد بأنها ترغبُ في أن تمكثَ معه ومع والديهِ في بيتهمُ القديم إن كان ذلكَ لا يشكل عائقا بالنسبةِ إليهم، فأخبرها أسعد بأنهُ لا توجدُ هناكَ أدنى مشكلة، لكنه كان يفضلُ لها أن تمكثَ مع طاقم التمريضِ بالمنزل الجديد، فهو يخشى ألا ترتاح كثيراً إن جلستْ معهُ بالمنزلِ القديم، فأردفت أنها لا تهتم لذلك وأنها تود أن تكون بجانبهُ فقط مهما يكنِ المكان، فلبَى أسعد رغبتها ومن ثَم دخلَا سوياً مع والده إلى البيت، رحبَ الحاجُ عبد الجليل بأسعد ونورا بحرارةٍ بالغةٍ وقدمَ

لِنورا واجب الضيافةِ من الفواكهَ وشتى أنواعِ الطعام، فقد أتتْ من سفرٍ طويل.

أُعجبتْ نورا كثيراً بتواضعِ والد أسعد وكرمهِ الشديد وفي بادئ الأمرِ، كانت خجولة بعض الشيء، لكنها في النهاية لبت رغبةَ أسعد ووالده وجلستْ معهما لتناولِ الطعام، بينما الذي كان يشغلُ تفكيرَ أسعد منذ قدومهِ هي والدتهُ، فلم يأكل شيئاً واستأذنَ والده ودخل ليطمئنَ عليها فوجدها طريحةَ الفراشِ ترتجف بشدةٍ، فما أن رأتهُ حتي همت بالقيام إليهِ محاولةً النهوض، لكنهُ سرعان ما طلب منها أن تظل مرتاحةً في سريرها، وألا تكبد نفسها عناءَ النهوض.

اقتربَ أسعد وجلسَ بجوارها وقبل يديها مبتسماً كيف حالكِ يا أمي ؟ لقد افتقدتكِ كثيراً، وضعت يديها على خديه تتحسسهما قائلةً: بخير مذ أن رأيتك يا بني.

_أجابها ما بكِ يا أمي، لا أظنكِ كذلك فوجهكُ شاحب للغايةِ وصوتك كذلك لا يوحِي بأنك على ما يُرام، فأسرع وأحضر حقيبتهُ وأخرج سماعته وأخذَ يعاين حالتها فوجد أنفاسها تخرجُ بالكاد، فأخبرَته بأنها تشعر بآلامٍ

شديدة في بطنها وجانبيها بعد أن ألح عليها بسؤالهِ عن حالها كثيراً وعن حقيقة ما تشعر به .

أخرج حقنةً مسكنةً وأعطاها إياها حتى هدأ ما بها من ألمٍ رويداً رويداً إلى أن غطتْ في سباتٍ عميق.

ظل عبد الجليلِ يطلبُ من نورا أن تتصرف على سَجيتها، كما لو كانتْ في منزلها تماماً بعد أن استأذنها ليذهب قليلاً، وبينما كان أسعد بالداخلِ يزملُ والدته إذ بوالده يدخلُ إلي الغرفةِ منادياً إياهُ بصوتٍ جهور، فالتفتَ إليه أسعد وهو يتمتمُ بصوتٍ منخفض: رجاءً فلتخفضْ صوتكَ يا أبي فأمي نائمةٌ وتحتاج إلى الراحةِ الآن.

_سألهُ مندهشاً كيف جعلتها تنام هكذا يا بني، فهي لم تنم جيداً منذ أسبوعٍ كاملٍ تقريبا!

_لقد أعطيتها حقنةً مسكنةً يا أبي ستسكنُ من آلامها لحين أن نعرف السببَ الكامنَ وراءَ تلك الآلام، مرت بضعُ ثوانٍ ثم أردف الحاجُ عبد الجليل: لقد كنت قد عقدتُ العزم أنا ووالدتكَ على السفر غداً لأداءِ فريضة الحج لكنني قررتُ الآن أن أظلّ ماكثاً معها لحينِ شفاؤها، فلا

يمكنني تركها في تلكَ الحالةِ وأرحل دون أن أراعيها فهي بحاجةٍ ماسةٍ إلى مساندتي إليها، أكثر من أي أحدٍ آخر سواي.

_أجابهُ أسعد بحنان: لا يا أبي لا تقلق على أمي فأنا وإخوتي هنا بجانبها نُراعيها، فلتذهب أنت لتحزمَ أمتعتك.

ولكن يابنيّ لقد كنت على عهدٍ معها أن نذهبَا سوياً، ولقد اعتدتُ وجودها مَعي كل يومٍ فلا يمكنني أن ألتفت يوماً واحداً ولا أجدها بجواري، قالها وقد خانته عيناهُ وانطلقتْ منهما الدموعُ .

_حينها أدركَ أسعد معنى "الحبُ الحقيقي" وأن الحب ليسَ بتكرار كلمة أُحبك! وإنما الحبُ بالأفعالِ وصدقِ المواقف

"المُحب" من يقف بجوارك ويساندكَ في ضعفكَ قبل قوتكَ، من يكون ظهراً وحمايةً لك ويحتوي ذلك الضعف ويحولهُ لقوةٍ لا تُقهر، من تجدهُ بجانبكَ في حزنكَ قبل فرحكَ، من يبقى معكَ ولا يتركَ أبداً مهما أُتيحت له الفرصُ وهُيأتْ له الأسباب، فلا يسعهُ أن يفلت يده من يدكَ يوماً ويرحل، من يرممُ كسور قلبكَ ويلونُ جدران روحكَ الباهتةَ فتجدُ معه أماناً وابتهاجاً، لم تعهدهما سابقاً فيضفيانِ لحياتك حلاوةً وعذوبةً لا

توصف، من تكون بعينيه ثميناً للغايةِ فلا يتمكن مـن التفـريط بـك لحظـةً واحدةً من الزمان، من يسعَى في سبيلكَ جاهداً مهما امتلـئ ذلـك الطريـقُ بالأشواكِ، فيظل صامداً لأجلكَ حتـى النهايـة، مـن يحبـك بعيوبـكَ قبـل مميزاتكَ فحتى إن رآك الناس ناراً، رآك هو جنةً ونعيماً، من يزيد مـن الثقـةِ بداخلك ويؤمن بكَ ولو فقدت أنتَ إيمانكَ بنفسك ويتشبثُ بك ويختاركَ وقت أن يتخلى عنكَ العالم أجمع"

تابع أسعد وهو يبتسمُ لوالدهِ وعينيه تلمـع حنينـا قـائلاً: هـل تُحبهـا لهـذه الدرجةِ يا أبي؟

أحبها! بل مالها بداخلي أعظمُ بكثير من تلكَ الكلمةِ، فإنها حقاً لَتعجز عـن وصفِ ما أكنهُ لها، كيف لا أحبها! فلقد كانـت سـندِي في الحيـاة، وعمـودُ هذا البيت ،لم تعترض على شيء يوماً، بل كانت راضيةً دوماً بما قسم اللهّ لنا من العيش، ولم تكن تنظر لغيرها أبداً، قانعةً بما عندها، تحملت كثيراً لأجلي بل وتحملت عصبيتي وقسوتي عليها في بعض الأحيانِ دون أن تشـكو، بـل كانت دائماً ما تلتمس لي الأعذار قبل أن أعتذر ، لقد وهبتْ حياتها وشبابها من أجلِ خدمتي وخدمةِ أبنائي، ولطالما كانت تخبر أهلها وصـديقاتها أنهـا تعيش معي في رغدٍ من العيشِ وأنني آتي لها بالأشياءِ دون أن تطلب وأننـي

لا أجعل شيئاً ينقصها ، هي من أحسنتْ إليّ وحفظتْ سِري وعرضي، ولم تُنكر يوماً فضلي وسهرت على راحتي بلا كللٍ، وجدتُها في السراءِ والضراءِ معينة لي، ووجدتُ في رفقتها سكوناً وراحة ورحمةً من عناءِ هذه الدنيا، فكان لكلماتها سحراً يطَيبُ جروحي على الدوام، لم تُشقني في صُحبتها قط، إنها عملةٌ نادرةٌ يابني لا يُكررها الزمن، كيف لا أحبها !

عانقهُ أسعد بشدةٍ قائلاً: فليحفظها اللهّ لنا يا أبي ،لا أريدكَ أن تقلق أو تحملَ هماً بشأنها، فسأنقلها في الغد إلى المستشفى وسأسهرُ على علاجها، مهما كلفنِي ذلكَ من جهدٍ وبإذن اللهّ تتحسنُ حالتها وتُشفى .

_سألهُ عبد الجليلِ وقلبه مفعمٌ بالأمل: أحقا يابني تستطيع معالجتها؟

بإذن اللهّ يا أبي، فلندعوا لها جميعاً بالشفاءِ وسيكون كل شيء علي ما يرام .

خرجَ أسعد من الغرفةِ ليجد نورا تنتظره بسؤالها، لماذا نهضتَ سريعاً من على المائدةِ دون أن تأكل شيئا؟

أجابها سأخبركِ بذلك لاحقاً يا نورا، فسألت في لهفة، ولكن مهلاً أين والدتك؟ أريد أن أتعرف عليها؟

بحزم أجابها والدتي تستريح وهي نائمة الآن وعليكِ أن تستريحي أنتِ أيضا، وأخذها إلى الغرفة التي ستبيت فيها، أما هو فلم ينم بشكلٍ جيدٍ طوال الليل وظل يفكر في حالة أمهُ.

في صباح اليومِ التالي والذي سيسافرُ فيه عبد الجليل إلى رحلةِ الحج، جميعُ من بالقريةِ حضرَوا أمام المنزلِ لتهنئته وتوالت توصياتهمْ بالدعاءِ لهم عند الوصولِ للحرم، ظلّ أسعد بجانبِ إخوته يقدمُ الفاكهةَ والشايَ الساخن للضيوفِ الحاضرين، لاحظت نورا تغيراً في وجهه فتقدمت نحوهَ وأردفت ما بك يا أسعد؟

_لا شيء إنني فقط مرهقٌ من السفر.

سألت بابتسامة واسعة الثَغر هل ستجعلني أتعرف على والدتك الآن؟

أجابها بتلعثمٍ: نعم بالطبعِ يا نورا لكن في وقت آخر، فكما ترين أنني منشغلٌ الآن ،انتظرتْ إلى أن تفرغَ ثم استأذنتهُ ودعتهُ للحديثِ في الخارج لبضع دقائقَ ثمّ سألته ما بك حقاً يا أسعد؟ فلتجبني رجاءً منذ البارحةَ وأنا ألْحظُ عليك شيئاً غريباً!

زفر أنفاسه بضيق :إن والدتي مريضة للغايةِ يا نورا، والأعراضُ تشير لخطورةِ الأمرِ لكنني لست متأكداً بعدُ ما هو ؟

_أجابته بحزم إذاً دعني أفحصها الآن.

_بالطبع سأحتاج إلي مساعدتكِ لكن، لننتظرْ حتى يسافر أبي أولاً فلا أريدهُ أن يزداد قلقاً لمعرفته ما بها وأيضا لكي نستطيعَ أن نتفرغَ جيداً لفحصها.

*****

انطلقَ الحاج عبد الجليل في رحلتهِ للحج فما أإن وصلَ حتى ظل يدعو اللهّ وهو يؤدي مناسك الحج أن يشفي له زوجتهُ، ويشغل عقلهُ هل حقا سيستطيعُ أسعد علاجها أم أنه ما زالَ حديث التخرج وليست لديه الخبرةُ الكافية للقيام بعملياتٍ جراحية؟ ظلّ يسرحُ بمخيلته للوراءِ نحو تلك السنواتِ الماضيةِ التي قضاها مع تلك المرأةِ والتي امتلئ قلبها بالحنانِ والطيبةِ، لم تعصِ له أمراً يوماً، فمنذ أن دخلتْ بيته الذي قد بُني بالطوب اللبِن والذي يحتوي علي ثلاثة غرفٍ صغيرةٍ وطرقةٍ ومرحاضاً، لكنها جعلت منه بِرضاها قصراً، فكان يأتي من عملهِ ليجد فيه راحةً تامةً ، فكان

دائما ما يجده نظيفاً ويجد طعامهُ جاهزاً، وهي تنتظره بلهفةٍ ليأكلا سوياً، وتظلُ تسألهُ عن أحوالِ عمله الشاقِ هذا وتخفف عليه بكلماتها وتوصيهِ بالحلالِ وتنهاه عن الحرامِ وتشد من أزرهِ وتقول؛ حتى وإن كان الحلالُ قليلاً سيبارك اللهّ فيه ويكفينا ويفيض فكانت تخاف اللهّ فيه وفي أولاده، وهنا شعرَ عبد الجليل بالرضَا ووثقَ بأن اللهّ تعالي يحبهُ بأن رزقه إياها ولن يخذلهُ أبداً، فنعم المرأة الصالحةُ هي.

****

في اليومِ التالي استيقظتْ نورا مبكراً وقامتْ لتُصلي وتتوسلُ إلى اللهّ كثيراً بالدعاءِ أن يشفي والدةَ أسعد، وتبكي كلما تتذكر تلكَ الدموع التي كان يصارعُ من أجل ألا تراها حينما كانت تسالهُ عن والدته، كيف لا؟ وهو من أعاد الحياة إلى قلبها مجدداً بعد أن كان قد تملكها اليأس، وتحادث نفسها هل حقاً وقعتُ في حبّ أسعد ؟!

أنا لا أفهمُ شيئاً سِوى أنني أشعر بالأمانِ الشديدِ معه، أفرحُ لفرحهِ وينفطرُ قلبي حزناً لحزنهِ، لا تبالغي يا نورا أهذهِ مشاعر ممتزجةٌ بين الحبِ وبين ما فعله من أجلك؟

لا أدري، لكن كلُ ما أعرفه أن تلك المشاعر من أقصى أعماقِ قلبي، ويـردد صوتها هذا ليس حباً هذا شيء أكبر من كل ذلك العالم، من كانَ يظن أنني سأخرج يوماً من حالتِي تلك بعد خذلانِ أصدقائي وخيانتهم لِي بجانب خيانةِ خالد اللعين؟ فبعد أن عشِقتهُ كل ذلك العشقِ في النهاية يتركني ويذهب لغيري، ومن تكونُ تلك التي تركني لأجلها ، صديقة الطفولة ؟ تلك التي اعتقدتُ أنها كانت تواسيني وتضمُ قلبيّ المتعجرف! لقد أوشكتُ علي الهلاك من إثر هاتينِ الضربتين، لم يكن لقلبي أن يتحمل كل هذا الكمَ من الخذلانِ والألمِ الذي أصابهُ أعواماً تلو الأخرى، إلى أن أرسلَ اللهّ لي شخصاً كأسعد ملاكاً على هيئةِ بشري، يمتلك من الصفاتِ أجملها ويتسعُ قلبه للجميع، ليأخذ بقلبي للنورِ مجدداً بعد أن كانَ قد أرهقهُ الظلام، حتماً سيُرشدني لأعودَ إلي اللهّ ، وسيمنحني اللهّ قدرةَ تحملٍ تفوقُ قدرة الجبالِ الرواسِي، ها أنا ذا قد عدتُ بقوةٍ ونسيتٌ كل آلامي كأَني لم أذقها يوماً "حقاً كي نشعر بطعمِ النور ومتعتهِ لابد أن نستشعر الظلامَ وعتمته، حتي إذا ما ارتقينَا إلى النورِ تمسكنا به وتشبثنَا بكل قواناً خوفاً من السقوطِ في الظلامِ وتذوق ألمهِ مجدداً"

اقتطع حبلُ أفكارها صوتُ طرَقاتٍ شديدةٍ عـلى بـاب حجرتهـا، وأسـعد يلهثُ بشدةٍ أَنقذيني يا نورا !

****

الفصل الثاني عشر.

جلسَ الحاجُ عبدالجليل في فناءِ البيتِ الحرام بعد أن فرغَ لتوهِ من الطواف به، ومن ثَم جلسَ يتناول طعامَ الإفطار.

لوهلةٍ شعرَ برجفةٍ تسري في جسدهِ يعقبها سرعةُ نبضاتِ قلبه المتلاحقةِ، وشعر بأن أضلعَ جسده تكادُ تقفز من مكانها، فتركَ طعامهُ وأخذ يتذكرُ زوجته وكأنه يشعر بما تشعرُ به الآن من ألم فكأنهما روح واحدة يتقاسمان الألم سوياً.

"يقال إنه إن كان الحبُ بين المحبينِ حقيقياً فإنهما يشعرانِ ببعضهما البعض، رغم ابتعاد المسافات"

تباً لذلكَ الشعور بأن تقف مكتوفَ الأيدي عاجزاً عن أن تُزمل روحَ من تحب، أن ترى من يحبكَ ويساندكَ ويجعل من قلبه عصاً لكَ تتكئُ عليها، غارقاً في معتركِ أمواجٍ هائجة وأنت لا تقدر على إنقاذه.

فلم يسع عبد الجليلِ حينها إلا أن يتضرعَ إلى اللهّ، والخوفُ والارتجافَ يعتريانه كما لو أن أحدهم سكبَ عليه مياهً باردةً في ليلةِ شتاءٍ قاسية الصقيع.

****

أسرعتْ نورا نحوَ أسعد بسرعةٍ جنونيةٍ والقلق يملأها حينما رأته غارقاً بدموعهِ، فسألته ماذا هناك يا أسعد؟ ما بك؟

_قادها إلى غرفةِ والدته التي تتلفظُ بأنفاسها البطيئة، والتي تفرقُ بينها وبين الموتى ويلهث قائلاً :

لقد اشتدّ المرضُ بأمي، فلتفحصيها الآن يا نورا فأنت بارعةٌ في قسمِ الأمراض الباطنة، لقد توقفَ عقلي عن التفكيرِ تماماً.

_أسرعتْ نورا إلى حقيبةِ أسعد وأخرجت منها سماعتهُ وبسرعةٍ باشَرتْ فحصها ، فوجدت أنها تعاني صعوبة في التنفس بشكلٍ كبيرٍ، وتابعت فحصَ عيناها فوجدتهما منتفختين، كما وجدتْ وجهها شاحب كثيراً.

من هنا بدأت تراودُ نورا شكوكاً حول ما تعاني منه والدةُ أسعد، فأمرتهُ وعبدالله بإمالتها على أحدِ جانبيها، فما كان منهما إلا أن امتثلاَ لأمرها في الحال.

_ظلتْ نورا تضغطُ بيديها على أماكنَ متفرقةٍ بجانبيها وبالقرب من منتصفِ ظهرها، فأخذت تتأوه من شدةِ الألم، باشرتها نورا بسؤالِها: هل

تؤلمك معدتكِ عندما تأكلينَ أو يراودك شعور بالغثيان في بعض الأحيان يا سيدتي؟ فأومأت برأسها إيجاباً: نعم يا بُنيتي، هذا تماماً ما أشعرُ به.

_هنا اصفرّ لونُ نورا وتغيرت ملامحُ وجهها، مما أدى إلى توترٍ بالغٍ علي وجوه الحاضرين خاصةً وقد وجدتْ تورماً ملحوظاً في كاحلَيها وقدمَيها، مما زاد تأكيدَ شكوكها ،فسأل ابنها عبدالله خيراً يا طبيبة ماذا بها؟

قالت نورا بحزمٍ لابد وأن ننقلَها إلى المستشفى فوراً.

_حسناً ولكن ماذا بها؟

_هزت رأسها بأسف: أشكُ بل أكاد أجزمُ، بأنها تعاني من فقرٍ في الدمِ، وقصورٍ حادٍ في وظائفِ الكلى، فلنجري الأشعة وبعض الاختباراتِ لنتأكد، فقد تكون بحاجة ماسةٍ إلى نقل كليةٍ في غضون بضعة أيام لا أكثر، فوضعُها صعبٌ للغايةِ ولا يحتملُ أدنَى تأخير.

_وضع عبدالله يديهِ على رأسه في خيبة أملٍ، في حين أبلغ أسعد الممرضات ليجهزنَ ومن ثَم نقلنَها إلى المستشفى.

_تم إجراءُ الاختبارات الطبيةِ والأشعةِ لها وفي غضونِ دقائق تفقدَتها نـورا وأغمضت عينيها بأسى: كما توقعتُ يا أسعد، يجب نقلِ كلية إليهـا بـأسرع وقتٍ ممكن.

قال عبدالله بدون ترددٍ :

أنا سأعطيها كليتي، وتقومانِ أنتما الإثنين بإجراء العمليتينِ لكلينا.

في حينِ قال أخاهُ الأصغر أحمد:

بل أنا من سيقوم بإعطائها الكلية وإذا تطَلب الأمر أن أُعطيها الاثنتينِ فـلا مانعَ لدي، ما يهمُ الآن هو أن تُشفى أمي بسرعةٍ، وتعود لها عافيتَها.

_كان ذلك حالُ جميع الأبناءِ فأخذ يردد كلٌ منهم بأنه سوف يكون المتـبرعَ لأمهِ بالكلية.

قال أسعد :

تمهلوا جميعاً فالأمرُ ليسَ بهذهِ السـهولةِ، فـأي مـا يكـنِ المتـبرعُ يجـب أولاً وبشكلٍ مبدئيٍ أن تتوافق فصيلةَ دمهِ مع فصيلة دمها.

قالت نورا :

فلنسرع فالوقتُ لا يحتملُ التأخير فلنأخذ عيناتِ الدم فوراً، وأمرت الممرضات بأخذِ عينات الدمّ من أبنائها الخمسةِ على رأسهم أسعد الذي تقدمَ للفحصِ بينما وقف الجميعُ باكينَ ومضطربينَ من هولِ حالتها الصحية، بانتظارِ نتيجة اختباراتِ الدم، فلحسنِ الحظ أن عيناتِ الدم أشارتْ إلي تشابه فصيلة دم كلاً من عبدالله وأسعد معَ والدتهما.

فبادر عبدالله قائلا :

إن حالتي الصحيةَ على ما يرام، فضلاً عن أن أسعد سيرافقُ نورا في إجراءِ العملية.

قال أسعد :

لن يُحدثَ ذلك فرقاً في شيء، سأقوم أنا بذلكَ يا عبدالله.

رفض عبدالله قائلاً :

عذراً يا أسعد، فهذهِ والدتي أنا وليست.....

قاطعهُ أسعد بغضبٍ أي هراءٍ هذا الذي تقوله يا عبدالله؟ إنها والدتي أيضاً، فالأمُ هي من علمتْ وربّتْ وإنني أريد أن أرد لها ولو جزءاً بسيطاً من حقها عليّ، ثم منذُ متى وتوجدُ فروقٌ بيننا؟ لولم نكن في وقتٍ حرجٍ كهذا

لكنت عاتبتكَ على ما تقول، لكن فلنطمئن عليها أولاً، ثم يكون لنا كلام آخر عندما يعود والدنا من رحلةِ الحجِ سالماً.

نورا: احم احم، معذرةً يا أسعد أخاكَ حتماً لا يقصد، فقلقهُ علي والدتكما فقط هو ما يجعلهُ الآنَ مندفعاً بعض الشيء.

اعتَذر عبدالله قائلاً :

فلتسامحني يا أخي، لم أقصد حقاً لكنني للمرةِ الأولى أرى أمي بتلكَ الحالةِ، ونال منه البكاء مبلغهُ مما أدى إلى بكاءِ الجميع، فعانقهُ أسعد قائلاً: لا عليك يا أخي، إنني مدركٌ تماماً لِما نمرُ به جميعنا، وهو ليس بالأمر اليسير حتماً.

تابعت نورا حديثها قائلةً :

لقد توافرَ الآن الشرطُ الأول، في حينِ بقي لدينا شرطٌ آخر لا يقلُ أهميةً عنه.

_ التفت الجميعُ إليها قائلينَ في آن واحدٍ: وما هو؟

تابعت نورا حديثها بجديةٍ واضحةٍ: أن يكـون المتـبرعُ معـافَى تمامـاً وخلـو جسده من أي أمراض، لـذا فيجـبُ أن تُجـرى بعـض الفحوصـاتِ الهامـةِ للمتبرعِ للتأكد من سلامتهِ أيضاً.

تقدمَ عبدالله قائلاً :

أرجوكَ يا أسعد دعني أتبرعُ أنا بكليتي لأمي، حتى تتمكنَ أنت ونورا مـن إجراءِ العملية بنجاح، في حينِ تحدثت نورا بهدوء: عبدالله محقٌ تماماً في كـلّ ما يقول، فإذا فعلتَ أنت ذلك من سيقومُ بإجراءِ العمليـة معـي إذاً؟ نظـر أسعد بحزنٍ: كما تريدون.

خضعَ عبدالله على مدارِ يومينِ لفحصٍ بدنيٍ كاملٍ، وتم إجراء الاختبارات الطبيةِ والأشعةِ اللازمةِ لهُ ومن ثَم اطلَعتْ عليها نورا وقالتْ :

للأسفِ الشديد فعبدالله لا يصلحُ أن يكون هو المتبرعُ.

اعتلتِ الدهشة وجوههم جميعاً وتساءلوا عن السببِ، فأجابتْ نورا: توجدُ لدى عبد الله بعض التهابـاتٍ في الرئـةِ، ولا يمكننـا أن نُجـازفَ بنقـل أي عضوٍ من جسدهِ الآن، فقد يشكل ذلك الأمر خطورةً علي كِليهما، فـلا بـد أولاً أن يتعافى تماماً، كما أوضَحتِ اختباراتهُ الطبية بالمقارنةِ مـع اختبـاراتِ

والدتكم، أنّ نسبةَ التطابقِ بين أنسجتهمَا الكلويـةِ ضـعيفة بعـض الشيء، فهناكَ احتمالية كبيرة إذاً لرفض الكليةِ من قبل جهازِها المَناعي.

_قبل أن تنهي كلامها تقـدمَ أسـعد عـلى الفـورِ لإجـراءِ الأشـعةِ وكامـلَ الاختبارات حتى تأكدتْ نورا من سـلامتهِ أيضـاً، ووجـدتْ خـلال أيـام الفحصِ أن نتيجةَ الاختبارات التي أجراها سلبيةً مما يجعـل أسـعد يصـلح لإعطاء أمه إحدى كليتيه، فاسـتدعتهُ نـورا إلى الخـارجِ وقالـتْ: أسـعد في حقيقةِ الأمر لم أكنْ أتمنى ذلك، فأنت مـا زلـتِ في بدايـةِ رحلتـك، وأنـت طبيب وتعلمُ جيداً أن التبرع بأحدِ أعضاءِ الجسدِ غالباً ما ينتجُ عنهُ مشـاكل صحيةٍ فهل ستخاطرُ بحياتك؟

رمقَها أسعد بنظرة ذهولٍ: أي سؤالٍ هذا؟ بالطبعِ نعم يا نورا، فلـن أنسـى حقّ تلكَ المرأة عليّ يوماً، وعنائها بي وعطفها، حينما كانـتْ تقـومُ برعـايتي منذ طفولتي إلى يَومنا هذا، ولن أتوانى لحظةً واحدةً عن التضحيةِ بحيـاتي بأكملها الآنَ لأجلها إن تطلبَ الأمرُ وليس فقط بعضوٍ واحدٍ من جسدي، ثم إن هناكَ أناسٌ كثيرونَ يمارسون حياتهم بشـكلٍ طبيعـي بكليـة واحـدةٍ فقط، ولا يهمني إن كنت قد أحظَى بعدها بحالةٍ صحيةٍ جيدةٍ أم لا، كل ما

يهمني الآن هو أن أنقذَ أمي وأنْ أرد جزءاً من جميلِ صنيعِ أبي عبد الجليلِ معي، وأرجوكِ يا نورا فلنسرعْ فلم يعد الوقتُ يحتملُ التأخير.

_أخرجت زفيرا طويلاً ثم قالت: حسناً يا أسعد لكنني أود قبل أن نفعل أي شيء، إرسال تقارير حالتكَ وحالةِ والدتكَ لفريق زراعةِ الأعضاءِ بالسعودية لمناقشتها وتقييمها فهم لديهم خبرةٌ كبيرة مقارنةً بنا.

أجابها أسعد فكرة عظيمة يا نورا فلنفعل ذلك علي الفور.

_تمّ سريعاً إرسال التقارير الطبيةِ لفريق الزراعةِ بالمملكةِ بواسطة والد نورا، بعد أن قامتْ بالاتصال به وقصتْ عليه الأمر فلم يتوانَ لحظة واحدةً عند تقديم العونِ والمساعدةِ كي يرد جزءاً من جميلِ أسعد في إنقاذِ ابنته.

_انطلقَ رجلُ الأعمال المصري (محمود أبو ضيف) بسيارته إلى المملكةِ العربية السعودية وفي غضون يومينِ، عاد بردودهمُ التأكيدية للنتائج بِأن أسعد يصلحُ فعلاً كمرشحٍ لزراعة الكلية لِوالدته.

_اعتلتِ الفرحةُ وجه أسعد عندمَا استقبلَ النتائجَ من والد نورا فعانقهُ وشكرهُ كثيراً، وظلّ يحمدُ اللهّ كما سُرّ الجميعُ لسماعِهم تلك الأخبار السارةِ.

تحدثت نورا بقلق ولكن يا أسعد من سيقومُ بإجراءِ تلك العملية الآن؟ هذا هو العائقُ الأخير أمامنا.

هل هذا سؤالٌ يا نورا! بالطبع أنتِ.

حملقت إليه بدهشةٍ ونهضتْ واقفةً ماذا؟ مستحيلٌ يا أسعد أن أقوم بعمليةٍ كبيرة كهذهِ وحدي!

_لماذا جعلتهِ مستحيلاً يا نورا؟ فأنتِ متفوقةٌ جداً، وأرى أنك تستطيعينَ ذلك كما سيرافقكِ في القيامِ بها طاقمُ التمريضِ الذي أرسلتهُ معنا الملكةُ ويمكنكِ الاعتمادُ على أفرادهِ، فهنّ من أكفأِ الممرضات.

_لا، لا يمكنني تخيلُ هذا فكيفَ يمكنني القيامُ به؟ لقد كنت سأفعلها فقط لعلمي بأنك ستكون معي ،أما الآن فقد اختلفَ الوضعُ تماماً ولا أستطيعُ القيام بها فتلك العمليةُ خطيرةٌ للغايةِ، وستتطلبُ جهداً كبيراً، حيث أنهُ لابد أن يتم التحضيرُ لزراعةِ الكلية في جسم المريضِ بنفسِ الوقت الذي يتمُ به إخراجُ الكليةِ من المتبرع، وأنا ما زلت حديثةَ عهدٍ بالطب، ولم يسبقْ لي إجراءُ أيةِ عملياتٍ جراحيةٍ، أتعي خطورةَ ذلك؟

_قالَ أسعد بهدوءٍ: لقد قمت بإجراءِ العملية لـكِ وأنـا حـديث التخـرجِ أيضاً، كما أننا تدربنا سوياً بما يكفي، وشاهَدتُ مهارتكِ الفائقة بنفسي، وقدِ اتضحتْ لي جلياً من تشخيصكِ الممتازُ لحالـةِ والـدتي، ثـم إنـكِ إذا كنـتِ تتذكرينَ محاضرةَ الطبيب مانويل بخصوصِ هـذه العمليـةِ، سـتجدينَ أنـه ببعضٍ من التركيزِ والدقةِ تستطيعينَ القيامَ بها وحدكِ إلي جانـبِ مسـاعدةِ الممرضات، أما زلتِ لا تثقينَ بقدراتكِ بعد؟

_أتذكرُ تلكَ المحاضرة جيداً يا أسعد، ولكننا كُنا نتدربُ تحت قيادةِ أطبـاءٍ مهَرة فلم نكن نتحملُ مسؤوليةً كبيرةً حينهـا، أنـتَ الآن تضـعني بمـأزقٍ كبير.

_بل أنا أثقُ بقدراتكِ يا نورا واخترتكِ لتلكَ المهمة الصعبة لِثقتي العظيمـة بكِ، وأنت بحاجةٍ لما يجعلكِ تثقينَ أنتِ أيضا بنفسكِ وتـؤمنينَ بقـدراتك، وليستْ هناك فرصةٌ أعظمُ من تلكَ التي أمامكِ الآن.

هيا تشجعي عزيزتي فأنتِ لها، تنهدتْ بصـمتٍ ولم تنطـقْ بكلمـة واحـدةٍ، وبدأتِ الدماءُ الممتزجةُ ببعضِ الشجاعةِ تضخُ في عروقهـا خاصـةً عنـدما أخذتْ عبارات أسعد التحفيزية تتردُ في خاطرهـا، وظـلّ يـذكرها بفـترة التدريبِ حتى اقتنعتْ تماماً وأمرتْ علي الفورِ بتجهيزِ غرفةِ العمليات .

الفصل الثالث عشر.

"الحياةُ ما هي إلا مواقف متبادلةٍ بين حينٍ وآخر، تختلفُ تلك المواقف باختلاف الأشخاص لكن فِي بعض الأحيانِ، فإن تشابه التفاصيلِ قد يُبقي النهاياتِ متقاربة.

بين الحياةِ والموتِ حاجزاً وإن بدا متيناً إلا أنهُ قد ينهارُ بين لحظةٍ وضحاها، فيجدُ المرءُ نفسه قد هَوى إلى حيثُ اللاعودةَ أبداً"

_الآن أسعد ونورا قد تبادلَا أدوارهما كعادةِ الأشخاصِ في الحياةِ، لكن ما يختلفُ هذه المرةَ هو المكان فقط.

في الأمسِ القريبِ كانت نورا بين يدَي أسعد بحالةٍ يرثى لها لا تقوَى على الحراكِ، وعلى مشرفةٍ من الموت، والآن يتمددَ أسعد في فراشٍ فاقداً للوعيّ بعد أن أعطتهُ نورا حقنةً مخدرةً وبعدها ذهبَ في سُباتٍ عميق، وعلى سريرٍ آخر موازياً له، ترقد والدتهُ في عالمٍ آخر مخدَرةً أيضا.

تجاهد نورا كي تُخفي ارتجافها وهي تُمسك بالمشرط الطبيّ، ما يخيفها ليس كونها حديثةَ التخرج ولا لكونها تُجري أول عمليةٍ جراحيةٍ لها، فلقد كانت متميزةً في قسمِ الأمراض الباطنة، وتدرك جيداً ما الذي ينبغي عليها فعله

لنجاحِ تلك العملية، لكن ما يخيفها حقاً هو أنها ستُجري الآن تلك العملية لشخصٍ استطاعَ أن يأخذ قلبها بحنانهِ ومروءته، شخصاً استطاع أن يعيدَ الحياة إليها مجدداً بعد أن كان قد تملَكها اليأس، فما إن أوشكت على الاستسلام حتى أخرجها من ظلماتِ الخذلانِ إلى نورِ الحب.

_نعم لقد وقعتْ نورا في حبّ أسعد منذ أن أنقذَ حياتها ومن ثم ازدادَ حبها لهُ بما قدمهُ لها من تضحياتٍ وللآخرينَ، فتمنتهُ بكل ما أوتيتْ من صدقِ المشاعرَ وهي تعتقد أنه ربما يُكنُ بداخلهِ أيضاً مشاعر نحوَها، غير أنه لم يُصرح بها ، لكنّ مشاعره تظهر جلياً في نظراتهِ إليها بين الحينِ والآخر، فتقص عيناهُ بتلكَ النظراتِ كلماتٍ في قلبهِ، يعجزُ لسانهُ عن البوحِ بها.

في الأمسِ القريبِ كانت تؤمنُ بمقولةٍ قد قرأَتها ذات يومٍ فمستْ قلبها، ألا وهي " أن فترةَ المراهقةِ تختلفُ بين الشبابِ والفتيات فالشابُ قد يعجبُ كل يومٍ بفتاةٍ مختلفةٍ، موهماً نفسه بحبها وسرعانَ ما ينساها، أما الفتاةُ فلا تنسى حُبها الأول حتي وإن أحبتْ بعده، بل وإن تزوجتْ إلا أنه يظل للحبِ الأول قدسيتهُ وعذريتهُ بداخلها رغماً عنها " .

رسختْ تلك المقولة بأعماقِ نورا لفترةٍ من الزمنِ فآمنت بها واتخذتْ منها مقياساً تقيسُ عليه، فلم تستطع نسيانَ خالد وظلتْ ترددُ في نفسها حقاً لقد استطاعَ نسياني بل وأحب غيري أيضاً، أما أنا فظللتُ عالقةً في المنتصفِ المميتِ لا حولَ لي ولا قوة "لذا فلا يجبُ أن نصدقَ كل ما نقرأ" فعندما التقتْ نورا بأسعد وحدثَ بينهما ما حدث من مواقفَ استطاع أن يأسرَ قلبها، ويرممَ جدرانه المحطمةَ، وينتشلها من تلكَ الأحزانِ والخيباتِ التي استقرتْ بأعماقها لأعوامٍ من الزمن، بل استطاع أن ينسيها حبّ خالد، ذلك الوهم الذي عاشت فيه لسنةٍ كاملةٍ وظنته في يومٍ من الأيامِ حباً حقيقياً، لذا فنصيحتي إليكَ "عندما تحزنُ فلا تقرأ شيئاً حزيناً لأنك حتماً ستعتقد حينها قد كتب من أجلك " بل يجبُ أن تعطي نفسك مهلةً من العزلةِ تفصلُ بها شتى أمورِكَ لتعودَ أقوى مما كنت عليه سابقاً.

استغرقتْ تلكَ العملية أربعُ ساعات متواصلة لتكونَ أول عمليةٍ جراحية ناجحة تُجري في ذلك المستشفى، بل وفي المحافظةِ بأكملها، كان للمرضاتِ دورٌ بارعٌ في مساندةِ نورا وبثِ الثقةِ بداخلها.

استفاقَ أسعد من أثرِ المخدرِ بصعوبةٍ ،فتحَ عينيهِ بثقلٍ وجد نورا تجلسُ بجوارهِ وقد أمرتْ إحدى الممرضاتِ بالمكوثِ إلى جانبِ والدته.

أمسكتْ نورا بيديهِ وقبلتْهما والدموعُ تتساقطُ من عينيها، حمداً للهّ على سلامتكَ يا أسعد، ابتسم بصعوبةٍ ثم أردف قائلاً :

هل أمي بخير؟

_ نعم يا أسعد إنها على ما يُرام لا تقلق.

_أشكركِ كثيراً يا نورا على مجهودكِ الرائع.

_لا تشكرني يا أسعد فلولاكَ لم أكن لأفعل شيئاً، إنه دوري كي أردَ جزءاً من جميلُ صنيعكَ ، هل تشعرُ بأي آلامٍ في جسدك؟ قالتها بعد أن قامتْ بأخذِ عينتَي دمٍ منه ومن والدتهِ وتفحصتهما وقالت: الحمد للهّ لم تظهر أي أعراض خطورة عليكما حتى الآن.

ظلتْ يوماً تلو الآخر تراقب حالتهما الصحية للاطمئنان على إذا ما كانت هناكَ أي مخاطرَ صحيةٍ محتملة لكليهما، لكن بفضلِ اللهّ قد استطاعتْ نورا إتمامَ تلك العملية ببراعةٍ وبنسبةِ نجاحٍ كبيرةٍ، وبعد مرورِ يومين وبعد أن اطمأنتْ جيداً خلالهما على صحتهما، أمرتْ بخروجهما من المستشفى وعودتهما إلى المنزلِ متعافينَ تماماً.

*****

استقرتْ نورا مع الممرضاتِ بالمنزلِ الجديدِ الذي أوصتِ الملكـةُ الـرجلين بشرائهِ لهنّ والذي يقع قريباً من المستشفى، فكانت تأتي كل صباحٍ لتطمـئن على أسعد ووالدتهِ، التي تعلقتْ بنورا كثيراً، فكانت تساعدُ الخادمـة التـي أرسلتها الملكة في إعداد الطعامِ وتقدمهُ بنفسـها لوالـدةِ أسـعد، كـما تقـدمُ واجبَ الضيافة للزائرينَ من أهالي البلدة الذينَ لم يتوقفوا عن زيارة أسـعد ووالدته منذ أن سافرَ عبد الجليل، ولسان حالهم جميعاً يردُ: بأن ذلك الخيرَ الذي قد زرعهُ عبدالجليل وزوجتهُ قديماً قد جنياه الآن.

ذات يومٍ بعد أن همتْ بالذهابِ إلى البيتِ المجاورِ للجلوسِ مع الممرضات لبعض الوقت، استوقفها أسعد ليتجولَا قليلاً بالبلـدة، لطالمـا كانـت نـورا تحبُ التنزهَ، لكن هذه المرةُ تبدو النزهة مختلفـة تمامـاً، حيـث تنزَهـا وسـطَ الحقولِ الخضراء وأشجارِ النخيل العاليةِ، وعلى ضفافِ النهر أيضاً والـذي يعتلي جانبيهِ أشجار الصفصافِ وتتدلي بـه أوراقهـا بشـكلٍ سـاحر، رؤيـة الفلاحين وهم يمرون بالماشية ويتعاونون فيما بينـهم كانـتْ تلـك الأشـياء البسيطة تُسعد نورا كثيراً، فلم يسبق لها أن رأتْ مثلَ هذهِ الأشياء مـن قبـل نظـراً لمسـتواهم المعيشي- الراقـي. _اسـتوقفها أسـعد تحـتَ ظـلّ شـجرة صفصافٍ كبيرة تقعُ على حافة النهر، وتحـدث مشـيراً نحوهـا وهـو يعـودُ

بذاكرته إلى الوراءِ أتعلمين يا نورا! هذه الشجرة دائماً ما كنت أصعدُ إلى قمتها لأذاكرَ عليها وهؤلاءِ الفلاحين هم من كانوا يشجعونني كأهلي تماماً، إنني أدينُ بكامل الفضلِ لكل شخصٍ منهم، بل لكلِ شبرٍ في هذه البلدة لذلك السبب ولأجلهم رفضتُ حينها عرض الملكةِ بالسعوديةِ بإنشاء مشفى خاصاً بي هناك.

_أجابتْ نورا وهي تتأملُ النهر الصغير، أنتَ شخصٌ قلما نجدهُ في زماننا هذا يا أسعد، شخص غيركَ لم يكن ليظلّ هنا ولو يوماً واحداً بعد ما وصلَ إليهِ من نجاحٍ الآن، منازلُ بلا كهرباء، ومشفى يعمل بالطاقةِ الشمسيةِ، وفقر شديد، لو أن أحداً ما مكانك لرحبَ سريعاً بعرضِ الملكة والإقامةِ بالخارج حيث الخدمُ والرفاهية، والأموال التي لا حصر لها.

_لا يا نورا، الفضلُ لابد وأن يردُ لأهله.

_إذاً أنت تنوي الاستقرار هنا!

_بالطبع يا نورا فلقد عزمتُ على الزواجِ هنا.

_لمعتْ عينا نورا وانتابَها شعورٌ مختلطٌ بين القلـق وخوفـاً مـن أن اعتقادهـا بأنه يبادلها نفس الشعور بالحبّ لم يكن بمحلهُ، فتساءلت بهـدوء: مصـطنعٍ من هي؟

إنها أنتِ يا نورا فهل تقبليني زوجاً لكِ؟

_ احمرّ وجهها خجلاً ونظرتْ بعينيها إلى الناحيةِ الأخرى، وقلبها يتراقص بداخلها فرحاً بعد أن علتْ دقاتهُ فالتزمت الصمت، فأردف قائلاً :

وهو يرفع ذقنها للأعلى برقةٍ لتقع عينيهِ بعينيها.

لماذا تصمتين يا نورا؟

ابتسمت بحمرةِ خجل لقد فاجأتني يا أسعد في الحقيقة أنا.....

_قاطعها بمرحٍ حسناً حسناً أنت لا توافقين، لا داعي إذاً.

فقامت بضربهِ علي كتفهِ ضربةً خفيفة أنا لم أقل هذا!

_ضحكَ ضحكةً عالية لا داعي لتصنع اللامبالاة، فأنـا أدرك جيـداً ومنـذ زمنٍ أنك مغرمةٌ بي، _ابتسمت ابتسامة واسعة الثغر يا لغرورك، ولكن من أين أتيت بكل هذه الثقة ؟

_أنا أمازحكِ فقط لكنكِ لم تجيبِ عليّ بعد.

_ نظرتْ إلى الأرض وهي تبتسمُ خجلا، أنت تعلم إجابتي، فتابعَ قائلاً :

أتعلمين إنني أحبكِ منذ عامٍ مضى- حين أن كنا في المملكةِ العربيةِ السعودية، ابتسمتْ وأردفتْ في فرحةٍ عارمة ولِمَ لَمَ تخبرني؟

_أنت تعلمين جيداً يا نورا أنهُ لا خبرةَ لي في تلك الأمور، كما لم أجد وقتاً ملائماً قبل هذا لأبحْ لكِ بمشاعري، ثم إن والدتي هي من شجعتني على ذلك.

_ضحكتْ ضحكة رقيقة حقاً؟ يجب عليّ أن أشكر والدتكَ إذاً.

ابتسمَ قائلا :إذاً ما حسبته كان صحيحاً، لقد وقعتِ في حبي أليس كذلك؟

_هيا يا أسعد نذهب إلي البيت.

ضحك ضحكة عالية، هيا عزيزتي ولنستعد لحياة جديدة معاً.

****

الفصل الرابع عشر.

أقلعتِ الباخرةُ من ميناءِ المملكة العربية السعودية متجهةً إلى مصرَ، وعلى متنها أخذ الحجاجَ العائدين لتوهم من بيت اللهّ الحرامِ يتبادلون أطرافَ الحديثِ ويتمازحونَ فيما بينهم، عدا الحاجُ عبدالجليل الذي لم يتوقف عقلهُ عن التفكيرِ في زوجتهِ، وما قد حلّ بها .

وصلَ عبد الجليلِ إلى منزلهِ في الخامسةِ صباحاً .

فتح الباب بهدوءٍ كي لا يزعجَ من بالداخلِ، وهو يترقبُ اللحظةَ التي قد تكون نقطة تحولٍ في حياته .

" إذا كان وقوعُ البلاءِ بالمرءِ سيئاً، فإن انتظارهُ أكثر سوءاً لأن وقوعه باتَ أمراً مفروضاً عليه فلا يسعهُ إلا الإذعانَ له وتقبله، أما الانتظارُ فيفتكَ بالمرء فتكاً من الداخل ".

وجد ابنه عبداللهّ يؤم إخوتهُ في صلاةِ الفجر فارتعدتْ فرائصهُ لكونهم مجتمعينَ في المنزلِ القديم، ظناً منه أن زوجتهُ قد أصابها مكروه، بمجردِ أن وضعَ حقائبه جانباً، كانوا قد انتهوا من صلاتهم فما لبثوا أن أسرعوا جميعاً نحوهُ بالتهاني ويقبلون يديهِ ويحتضنونهُ بشوقٍ والسعادةُ تغمر وجوههم .

_سأل عبدالجليلِ بلهفة مختلطة بالخوف: أين والدتكم؟ آملُ أن تكون بخير و....

_أنا بخير يا عبدالجليل حمداً للهّ على عودتك سالماً.

كان هذا صوتُ زوجته التي استيقظتْ على صوته.

_نهضَ واقفاً لا يصدق عينيهِ وأسرع نحوها، وللمرة الأولى خانهُ ثباتهُ واحتضنها بقوةٍ أمام أبناءهما، كأنهما الناجيانِ الوحيدانِ من المعركة وسط بسمات أبنائهما، وسعادتهم بهما لا تُوصف .

_جلسَ الحاج عبدالجليل وسطَ أبنائه يتناولونُ طعامَ الإفطار، بينما كانت نورا تتناوله مع والدة أسعد بالداخل .

ظلّ يستفسر منهم عن كل شيءٍ قد حدثَ في غيابهِ .

_فبادر أسعد وهو يرمقُ إخوتهُ بنظراته كي لا يتحدثون عن شيء قائلاً:

لا تقلق يا أبي لقد كانتْ توجدُ ثمةَ مشكلة في إحدى كليتيها وعالجتها بسهولةٍ، وها هي أمي الآن بفضلِ اللهّ بخيرٍ وعافية .

خرجتْ والدته من الغرفة قائلةً:

لا يا بني، لابد وأن يعلم والدكَ كل شيءٍ، فلقد عشتُ معه منذ ثلاثون عاماً ولم أخفِ خلالها عنه شيئًا قط .

أسعد أرجوكِ يا أمي.....

قاطعه عبدالله قائلاً:

لا يا أسعد، والدتنا محقةٌ تماماً والتفت إلى والده وتابع قائلاً:

في حقيقةِ الأمرِ يا أبي إن والدتي كادتْ أن تفارقَ الحياة، فلقد تعطلتْ كليتيها عن العمل علي نحو غير طبيعي، وأسعد لم يتردد لحظة واحدةً و تبرع لها بإحدى كليتيه حتي شفيت تماماً .

_تركَ عبدالجليل طعامهُ وأسرعَ إلى أسعد يضمهُ بشدةٍ والدموعُ تتساقط من عينيه ، ولدي كيف لي أن أشكرك؟ لقد زرعتُ الجميلَ في أهلهِ وها أنا ذا أجني أضعافه.

قبلّ أسعد يديهِ ورأسهُ قائلاً:

لا يا أبي بل أنا من عليه شكركما، فلقد فعلتما لأَجليَ الكثير .

_أخبرني يا ولدي هل أنت على ما يرام الآن أم بكَ أي آلام؟

_لا يا أبي، حمداً للهّ جميعنا بخير.

_قال عبدالجليل ولكن من قام بإجراء تلك العملية؟

ابتسم أسعد قائلاً:

الطبيبة (نورا أبوضيف) يا أبي .

حدقت عينيه بدهشةٍ، يا إلهي!

كيف استطاعتْ أن تنجحَ في إجراءِ تلكَ العملية الخطيرة وحدها؟

لقد أخبرتكَ يا أبي أنها من أعظمِ الأطباء كما كان لوالدها دوراً كبيرا في مساعدتنا في نجاح تلكَ العملية، فلقد سافر إلي المملكة العربية السعوديةِ بالأوراق لمراجعتها من قبل فريق زراعة الكلى، والحصول علي موافقتهم على إجراء العمليةِ وعادَ مسرعا.

_إنهم أناس خيرينَ يا بني لقد أدوا واجباً إنسانياً رائعاً معنا .

_أجابتْ زوجتهُ باسمةً حقاً يا عبدالجليل، كما أن نورا حرصتْ على توفير جميع سُبل الراحةِ لي حتى شفيتُ تماماً، لقد أصبحتُ معتادةً على وجودها بيننا، وإنني أرغب بأن نزوجها لأسعد ما رأيك؟

_ابتسم أسعد بخجلٍ في حين قال والدهُ إنها نعم الفتاةُ يا أم عبدالله لا مانع لدي فهي طبيبةٌ مجتهدةٌ مثله، وإنني أقترح أن نستدعِي والديها إلى طعام الغداءِ يوماً ونعرضُ عليهما الأمرَ، وبإذنِ اللهّ ما إن اتفقنا فسوف نعقدُ قرانهما سوياً مع قرانِ عبدالله في ليلةِ عرسٍ واحدة، ما رأيكم؟

_رددوا جميعاً في آنٍ واحدٍ نِعم الرأي يا أبي، بينما قلبُ أسعد يتراقص فرحاً لأن حلمه بالفوز بمحبوبتهِ الحسناء غدا على مقربةٍ منه، بينما كانت نورا تستمع إلى كلماتهم بالداخل فإذ بدقاتِ قلبها تتسارعُ من السعادةِ لاقترابها من الوصول إلى أملٍ لطالما تعلقَ قلبها به .

****

وصلَ رجلُ الأعمالِ (محمود أبو ضيف) وزوجتهُ إلى بيت الحاج عبدالجليل فما إن رأتْ زوجته ابنتها نورا، حتى أخذتْها بين أحضانها في عناق طويل .

رحبّ الحاج عبدالجليل وأسرته بأسرةِ (محمود أبو ضيف) ترحيباً كبيراً، وقدموا إليهم واجبَ الضيافةِ في كرمٍ بالغ، وبعد الانتهاء من تناول الطعامِ جلسوا يتناولون بعضاً من الفاكهة .

_تحدثَ الحاج عبدالجليل وأبدى رغبتهُ ورغبة ولدهِ أسعد بزواجهِ من نورا.

كانتْ نورا قد أخبرتْ والدها برغبتها في الزواج من أسعد.

بعد تفكيرٍ عميقٍ من والدها ومحاولاتهِ لإقناعها بأن ما تشعر به بداخلها تجاه أسعد قد يكون مجرد نزوةٍ عابرة كتلكَ التي مرتْ بها سابقاً، وأن حبها لهُ وتعلقها به ما هو إلا إعجابٌ بصنيعه معها، وأنها قد لا تتحمل المعيشةَ في بلدةٍ ريفية كالتي يسكن بها أسعد، ولا تستطيع القيام بأعباء حياةٍ زوجية مقارنةً بمعيشتها الراقية .

إلا أن إصرارها عليهِ جعل والدها يرضخُ لرغبتها فوافق على إتمامِ هذا الزواج .

_بعد فترة خطبةٍ دامتْ لستة أشهرٍ مليئة بالحبّ والألفة، ومحاولاتِ أسعد ونورا الكثيرة لنشر الوعي والثقافة الطبية بين أهالي البلدةِ وإنقاذٍ لأرواح الكثيرينَ منهم ومن أهالي البلادِ المجاورة، بين جراحٍ وكسورٍ، وبين تطعيم الأطفالِ .

ذات يومٍ بعد أن انتهيا من التطعيم بعد أسبوع كاملٍ من التعب والجهد دون توقف .

كانا قد همّا بالعودة إلى المنزلِ ليستريحا من عناءِ يومٍ شاق، فإذ بصوت صرخاتٍ قادمة نحو المستشفى وأناساً يحملونَ عاملين بناء قد سقطا لتوهِما من الطابق الثالث، أثناء أداء عملهما بأحد المنازل القريبة للمستشفى .

كان الحادث مروعاً والإصابات متفرقة على جسديهما بين كسورٍ في ساعديهما وجراح في رأسيهما وكدمات، ونزيف هائلٍ من الدماء بمنتصف جبهة أحدهما .

بذل كلاً من أسعد ونورا مجهوداً منهكاً للغاية بين تخييط للجروح ونقل دمٍ للشخص الذي كان رأسهُ ينزف، كانا يتبادلان دورهما من وإلى المصابَين اللذانِ كادا أن يلقيا حتفهما .

وبعد ثلاث ساعات متواصلةٍ من إجراء العمليتين بصعوبة بالغة لإرهاقهما الشديد إثر يومٍ حافل باستقبال المرضى، سقطتْ نورا فاقدةً الوعي من كثرة الإجهادِ والاعياءِ كما لحقت بها إحدى الممرضات أيضاً .

_أصاب الذعر قلبَ أسعد مما حدث َفأسرع إلى نورا محاولاً إفاقتها ومن ثَم حملها هي والممرضة الأخرى بمساعدة باقي طاقم التمريض، ونقلهما على الأسرةِ، وعلق لكلتيهما المحاليل اللازمة في الحال .

_كان أسعد يبدو عليهِ النعاس الشديد مما جعله يتمدد على أرضية غرفةِ العمليات، فمن كثرة الإجهادِ لم تستطع قدميه أن تحملاه إلى الفراشِ، فنام على الارضِ في سباتٍ عميق .

حينَ استفاق كانت نورا قد صحتْ من إغمائها والممرضات قد ذهبنَ في نوم عميق .

فتحَ عينيه بثقل وذهبَ ليطمئن عليها ليجدَ الحاج عبدالجليل ماكثاً بجوارها وقد أعدتْ زوجتهُ الطعام.

_همتْ نورا بالذهاب إلى المرحاضِ واغتسلت وبدلتْ ملابس العملِ ومن ثم جلسوا الثلاثة يتناولونَ الطعام سوياً .

تحدث الحاج عبدالجليل قائلاً: إنني أعي تماماً جهدكما وتفانيكُما في العمل، وكم أنني سعيدٌ لكونكما أديتما الأمانة التي قد حملتها لكما على أحسنِ ما

يرام، فقبل بناء هذا المستشفى ووجودكما، كانت المنايا لا تتوقف لمجرد إصابة الأشخاص بنوبة صداع.

لكنني أرى يا أبنائي أنكما لن تستطيعان مواصلةَ القيامِ بكافةِ العمليات وحدكما، لذا فأقترح عليكما البحث عن أطباء آخرين لمساعدتكما في القيامِ بأعباء ذلك المستشفي .

_أومأ أسعد برأسه إيجاباً أنت محقٌ يا أبي، فنحن بحاجة ماسة إلى طاقمٍ طبي متكاملٍ، فلقد تخطى الأمرُ أكثر من طاقتنا .

_تابعتْ نورا بجديةٍ واضحة نعم يا حاج عبدالجليل، ولكن قد يكلفنا الأمر بعض الشيء .

_لا يهم يا بُنيتي فالمال وفيرٌ والحمد للهّ، فما يهم أكثر من ذلك هو مساعدةُ أبناء بلدتنا الفقراء، وإنقاذ تلك الأرواحِ التي علقتْ آمالها في الشفاء على عاتقيكما .

_لكن من أين سنحصل على هؤلاء الأطباءِ يا تُرى؟

قالها أسعد بعد أن انتهى من طعامهِ، فأردف والدهُ سنلجأ إلى مستشفياتِ المحافظاتِ المجاورة وحتماً سنجد لديهم أطباء قد يسدونَ عجزنا .

_عذراً يا أبي، فهم هناك أيضًا بحاجةٍ إلى الأطباء كما أنهم قد لا يتقبلونَ المعيشةَ في بلدتنا مقارنة ببلادهم .

_تنهد عبدالجليل تنهيدة يأسٍ قائلاً:

وما العمل إذا؟

_قالت نورا: لديّ فكرة قد تُجدي نفعاً .

سألا في آن واحد: وما هي؟

_إن لدينا زميلاتٌ كفءٌ حديثي التخرج، وأثق أن لهنّ من المهارة الطبيةِ ما يؤهلهنّ للعمل معنا بجدارة ولكونهنّ حديثي التخرج ويحتجنّ للخبرة بجانب إعطائنا لهنّ مقابلاً مادياً جيداً سيخضعنَ حتماً للعمل معنا، والعيش هنا دون شروط كثيرة كغيرهنّ من الأطباء .

_أجاب الحاج عبدالجليل على الفور فكرة عظيمة يا بنيتي فلتستدعيهنّ في الحال .

_عاد أسعد بمخيلتهِ إلى الوراء يتذكر كم السخرية التي لطالما وضعنهُ بها، تألم بداخله لكنه التزم الصمت .

_تفهمتْ نـورا الأمـر سريعـاً فنظـرتْ إلى الأرض خجـلاً، في حـين قـال عبدالجليل ما بكَ يا أسعد؟

التفت إلى الناحيةِ الأخرى وهو يحاول جاهداً كي لا تسقط دموعه ثم تـابع قائلاً: أرجوكَ يا أبي فلنبحثْ عن أطباء آخرين غيرهن.

_عقد حاجبيه بدهشةٍ لماذا يا بني؟ أهم ليسوا أهلاً للعمل هنا أم ماذا؟

_لا يا أبي كما أخبرَتك نورا هن ذواتُ كفاءةٍ، لكنك لا تدرك كم الألم الذي تسببن به لي والسخرية من أهلي وبلدتي لكونهـا بلـدٌ فقـير وأشـياء أخـرى كثيرة، كنّ لا يتوقفن يوماً من الأيـام عـن بـثّ الإحبـاطِ بـداخلي، وتلـك الندباتِ النفسية التي أنشأتها كلماتهنّ بداخلي لاتزال مستوطنةً بقلبي حتـى الآن، إنني أعتذر إليكما فلا يمكنني العمل معهن .

انهمرتِ الدموعُ من عيني نورا وداخلها يكادُ يتمزق حزناً عـلى أسـعد، ولم تستطع التفوه بكلمةٍ واحدة .

_تابع عبدالجليل بحكمةٍ: اهدئا يا أولادي، لقد خانك ذكاؤكَ هذهِ المرة يـا أسعد لقد كنت أظنك أكثر حكمةً وذكاءً من ذلك .

لا أفهم ما تقصدهُ يا أبي؟

_تابع عبدالجليل بحكمة وهدوء قائلاً: إنك تنظر إلى النصف الفارغ من الكوب يابني، لو أنك نظرتَ إلى النصف الممتلئ منهُ وتمعنتَ فيه جيداً لأدركتَ أن الأقدار أرادتْ أن ترد إليكَ حقوقك مضاعفة.

فحينما تكون أنت رئيساً الآن لمن كنّ يسخرنّ منك سابقاً، ويشككنّ في قدراتك ونجاحكَ فهذا أكبر دليل قد يبرهنُ لهنّ على نجاحكَ وقوتك ويعلمهنّ درساً لن ينسوه ما حيوا، لكنّ دورك الآن هو أن ترأسهنّ بفائقِ الاحترام والتواضعِ فهذا يكفي لأن يفتك بهنّ ويجعلهنّ يندمنّ على فعلتهنّ ويحنينَ رؤوسهنّ لكَ تواضعاً واحتراماً .

أنت الأقوى الآن فكيف يهرب القويُ من الضعيف!

يجب أن تستدعيهنّ للعمل تحت قيادتك دون أدنى تردد يابني .

_لمعتْ عينا نورا من دهاءِ الحاج عبدالجليل وحكمته وامتلئ داخلها سروراً إثر كلمات عبد الجليل لأسعد، ودتْ حينها لو أن يكون لديها شيئاً من حكمته وتستجمعُ بعض الشجاعة لقول كلماتٍ كهذه لأسعد في سبيل التخفيفِ عنه لكنها لم تستطع أن تنطق بحرفٍ واحدٍ منها .

في تلكَ الأثناء أسرع أسعد يقبل رأس والده بعد أن اقتنع بكلماته قائلاً:

نِعم الرأيُ رأيكَ يا أبي وأخذ نفساً عميقاً سوف أفعلها .

****

الفصل الخامس عشر.

(لقد حمّلنا اللهّ مهمةَ إنقاذ الأرواح، وهي أمانةٌ عُظمي يختص اللهّ بها من يشاءُ من عباده).

وقد جرت العادةُ بأن البشر يخطئون، لكن شتّان بين الأخطاءِ وبعضها البعض .

فخارج عُقر هذا المستشفى أي خطأ قد يُعوض، أما بداخله فالخطأ لا تعوضهُ كنوزُ الحياة .

لأنه بمجرد الخطأ ثَمة أنفس بشرية ستموتُ.

كما أن لهذهِ الأنفس أهلٌ وأقاربُ مثلنا تماماً، ينتابهم الخوفُ الشديد عليهم، ويأملونَ شفائهم وعودتهم إلى ديارهم سالمينَ، لذا فلنفصل بين داخلِ هذا المستشفى وخارجه، وإن كان الحالُ كذلك في جميع أمورنا، يجبُ ألا نحكم على الأشياءِ إلا بعد التمعنِ بما في داخلها) .

ألقى الطبيب أسعد هذه الكلمةَ في أول اجتماعٍ للعاملينَ بالمستشفى وأردف قائلاً " هناك نقطةٌ تحول في حياةِ كل منا لا يعود بعدها إلى ما كان عليه

أبداً، لذا فلتكن نقاطُ التحول في حياتنا دفعاتٍ للأمامِ، لا تجعلنا ننظر إلى الوراء أو نتفقدهُ مرة أخري".

طأطأ الجميعُ رؤوسهم بخجل من تلميحاته تجاههم، مَن كان منهم يعتقدُ أنه سيعمل الآنَ لدى الشخصِ الذي كان يسخرُ منه سابقاً؟

فلقد استطاعَ أسعد أن يرمي صخورَ الإحباطِ واليأسِ التي انهالت عليه منهم ومن الأقدارِ خلف ظهرهِ، بل ويصعدُ من خلالها نحو القمةِ أيضاً .

" الثباتُ حين يظن الجميعُ أنك ساقطٌ لا محالة هو من أصعبِ المواجهات في حياةِ كل منا، لكن للانتصار الذي يأتي بعدها لذةٌ كبيرة، لا يدركُ قيمتها فقط إلا من قامَ بتجربتها"

أخذ أسعد يُعرف الجميع ببعضهمُ البعض .

هذا (الحاج عبدالجليل والدي ومالكُ هذا المستشفي)

(الطبية تهاني عبدالله – قسم النساءِ والتوليد)

(الطبيبة إحسان الهلالي– قسم العيونِ والليزك)

(الطبيب هاني حجاج وزوجته الطبيبة أماني أبو الخير – قسم الجراحةِ العامة)

(الطبيبة ثناء محمد – قسم العظامِ والعمود الفقري)

(الطبيبة إسراء إبراهيم – قسم المخّ والأعصاب)

رحبَ الحاج عبد الجليل بهم جميعاً في حين ألقى كلمته هو الآخر قائلاً:

"لا فرق هنا بين مديرٍ وعامل فللجميعِ قدرهم ومكانتهم، فلن يكتمل البناءُ إلا بالتكاتفِ فيما بيننا والترابط .

يجبُ علينا جميعاً أن نقف وقفة رجلٍ واحد من أجل النهوضِ بهذا المستشفي نحوَ الأمام، فهذا بيتكم قبل أن يكون مقرَ عملكم"

سأقص عليكم قصةً والتي دَفعتني للسعيّ في بناءِ هذا المستشفى .

"في قديم الزمانِ كانتْ قريتنا صغيرة للغايةِ، ولم يكن يعيش على أرضها أناسٌ كثيرين نظراً لقلةِ الموارد بها، إلى جانبِ الفقر والجهل اللذان كانا يهيمنان عليها آنذاك، فجئتُ مع والدي وجدي وباقي الأسرة عندما كنتُ طفلاً صغيراً ذو عشرةِ أعوام وكنا أول من قدمنا إلى هذه القرية، فأنشأنا

كوخاً خشبياً صغيراً على ضفاف النهر الذي كان يضم علي ضفتيه أشجاراً كثيرة، "كان هذا الكوخُ يحوينا جميعاً بالكادِ"

كانتْ القريةُ عبارةٌ عن غابةٍ تسكنها الذئاب المفترسة .

حين ورث جدي هذه الأرض الصغيرة "وأشار بيده من النافذة نحو بيته القديم" بدأنا في استصلاحِها للزراعة .

بدأ السكانُ القدامى يحلون ببلدتنا رويداً رويداً، وبدأتِ الزراعة تنتشر والقرية تُعمر بمرورِ الزمان، واستمرّ الأهالي في بناء الأكواخِ الصغيرة بها .

شهدنا عقبات كثيرة وصعاب لا تُحتمل، كانت بدايتها عندما حاربنا الذئابَ والثعالب والوحوش التي لطالما كانت تهاجمنا، إلى أن فرتْ من البلدة تماماً .

بعد أن هرِمنا من أجل الاستقرار لم نلبثْ إلا وقد حلّ علينا بلاء مرضي لم ندرِ كنهه، وهو وباءٌ يُدعي (الكولِيرا) .

فتكَ بالكثيرين من البلدة على رأسهم جَدي، والأستاذ (طارق) الذي كان يعلمُ الأطفال الصلاة وأمور الدينَ وينشر العلم والتوعيةِ بين أهالي البلدةِ حينها .

لقد كان رجلاً خلوقاً محبوباً من الكبير والصغير فكان لِموته حزناً كبيراً شهدتهُ البلدة بأكملها لفترةٍ طويلة .

كنتُ حينها في العشرينَ من عمري، لن أنسى وقتها ونحن مغلقين الأبوابَ علينا ولا يخرجُ أحد منا من بيتهِ أبداً .

جفتِ الأراضي والزروعُ، وهلكتِ المواشي .

توقفتِ الحياةُ في بلدتنا وخلتِ الشوارع من الناس، لقد كان عاماً مليئاً بالحزن والفقر مما زاد الطين بلة.

لم نكدْ نستفق منه حتى هاجمنا الجرادُ والآفاتُ الزراعية، فابتلعت زروعنا وثمارنا، حاربناها بشتى الوسائل من إشعال النيران ودق الطبول وأشياء بدائية كثيرة لم تُجدِ نفعاً.

وقفنا صامدينَ في وجه الأزماتِ وواجهنا الموتَ مرات عديدة، أفنينا حياتنا ووهبنا أرواحنا فداءً لهذهِ القرية .

كان بإمكاننا الفرار منها أو البحث عن غيرها، لكننا آثرنا الموتَ على تركِ ديارنا .

شاهدتُ موت جَدي أمام عينيّ وهو يتلوى من الألم، ولا أحدَ منا بوسعه أن يخفف عنه بعضاً من آلامه .

كنت أودَ لو أنني أمتلكُ عصا سحريةً مثل التي كان دائماً ما يقص علينا حكايتها الأسطورية، فأستطيعُ معالجته بها.

أو أنني كنت أمتلكُ مالاً كافياً يمَكنني من إلحاقه بأحدِ مستشفياتِ البلاد المجاورة، على أمل أن يتمكنوا هناك من مساعدته .

لكن المالَ لم يكن موجوداً أو لم يكن يهمُ وجودهُ من عدمهِ حينها لأن الوسائل الطبية في جميع المستشفياتِ كانت محدودةً للغاية، ولم تكن وزارةُ الصحةِ قد توصلتْ بعدُ لأي عقارٍ لعلاجِ ذلك الوباءِ اللعين .

أعتذرُ عن الإطالةِ عليكم لكنّ كل ما قصصتهُ الآن ما هو إلا نقطة في بحرٍ من هولِ ما لقينا .

كانتْ أبسطُ أحلامنا توافرُ ولو صيدليةٍ صغيرة نستطيعُ من خلالها معالجةِ أي شخص منا من عارضٍ بسيط قد يصيبهُ، كالصداعِ مثلاً .

وتنهد بحزنٍ عارم:

لكن ما كان لنا من حيلةٍ في ذلك أبداً .

الآن منّ اللهّ علينا ورحم ضعفنا، ومكنني من بناءِ ذلك المستشفى الهائل، لذا فأوصيكم بصبّ كل ما درستموهُ من علمٍ فيه دون تقتير وبذلِ كل جهودكم في معالجةِ المرضى لأن العديد من الآمال قد علقتْ عليكم وأنا أثق بكم جميعاً، فلتكونوا على قدرِ المسؤولية .

وأخذ يوصيهم بالإتقانِ والتفانِي في العمل لأجل النهوضِ بالمستشفى، ثم أجهشَ بالبكاء .

صفقَ الجميع تصفيقاً حاراً وانتابتِ القشعريرةُ أجسادهم متأثرينَ بكلماتهِ، وعن ذلك الكفاحِ والصمود الذي قد عاشهُ أهل هذه البلدةَ فوعدوهُ ببذل كل الجهدِ وإتقانِ العمل .

كما اختارَ الحاج عبدالجليل بعضاً من شباب القريةِ كعمالِ نظافةٍ للمستشفى، الذي بدأ يذيعُ صيتهُ ويشتهر بسرعةٍ في البلادِ المجاورة .

****

تستعدُ أسرة (رجلِ الأعمال محمود أبوضيف) وأسرةُ الحاج عبدالجليل لعرسِ الزفافِ الكبير .

بعد تجهيز مراسمِ الحفل والبيتُ علي أكمل وجهٍ، وسعادة نـورا وأسـعد لا توصف فلقد كانا خير عوضٍ لبعضهما البعض بعد ما مرّا به من صـعوباتِ الحياة .

وجدتْ نورا به حنانَ الأخ الذي لم ترزق به وشهامةً وحباً أضاء عتمةَ قلبها بعد سنوات مريرةٍ من الإنطفاء .

ووجد بها هو الآخرُ براءةَ طفلةٍ وحباً كبيراً غمر حياتهُ بالسعادةِ والسرور .

أُقيمتْ الأفراحُ لثلاثِ ليـالٍ متواصـلةٍ وتـزوج كـلاً مـن (أسـعد ونـورا) و(عبدالله ورقية ابنة خالهِ) بليلةِ عرسٍ واحـدةٍ دُعيـت لحضـورها البلـدةُ بأكملها ورجالُ الأعمالِ من أصدقاءِ وصديقاتِ والديّ العروسِ، والعديدِ من الأطباء .

أصبحَ الحاج عبدالجليل ووالدُ نورا صديقينِ حميمين فقاما بإنشاء مشـاريعَ مشتركةٍ في البلدةِ أبرزها مصنعاً للقطـنِ والـذي وفـرَ العديـدَ مـن فـرصِ العمِل لأهل البلدةِ، فكانوا يشترون القطنَ مـن الفلاحـينَ بـثمن معتـدلٍ، بدلاً من بيعهِ للقرى المجاورةِ والشوناتِ الزراعية بثمنٍ بخـس، ومـن ثـمّ يصنعونَ منه الملابس وزيت بذور القطن .

_ظلّ أولادُ عبدالجليل يقضونَ فترة النهارِ سوياً معه هو وزوجته في المنزل القديمِ، ومن ثَم يعودون أثناء الليلِ للمبيتِ بالمنزل الجديد، أما أسعد ونورا فقد قامَا بمساعدة الأطباء يوماً تلو الآخر بتطويرِ المستشفى، واستقبال الحالات من شتى المحافظات ومعالجتها بثمنٍ زهيد كما أمر الحاج عبدالجليل تماماً، حتى أصبح بفضل جهودهم من أفضل المستشفيات .

مَضى العامُ الأول ورُزق عبدالله بولدٍ أسماه جده (حُسام).

بينما رُزق أسعد ونورا بابنةٍ أسماها جدها (رحمةَ) .

وفي اليوم السابعِ ذبحَ الحاج عبدالجليل الذبائحَ وأقامَ وليمةَ كبيرةً بالقريةِ، ودعا جميعَ من بالبلدةِ إليها .

لم ينس الفقراء مِن بلدته بالمساعدة ومد يد العونِ لهم في شتى الأمورِ، حتي استقرتِ الحياةُ بينهم في ألفةٍ ومودةٍ وعاشوا جميعاً في رخاءٍ، بصحةٍ وسلام.

تمت بحمد الله

****

"إهداء خاص"

إلى الأب الروحي والصديق المخلص، الكاتب المبدع "القيصر"/ محمد محسن حافظ، الذي آمن بقلمي ولم يتوان لحظة عن تشجيعي ومد يد العون لي، حتى وصلت بقلمي إلى النور، دمت مبدعاً وسنداً وأباً ثانياً، أحبك في الله.

ابنك/ سعد السعودي.

جدول المحتويات

الإهداء... ١
تمهيد... ٢
الفصل الأول... ٥
الفصل الثاني... ١٣
الفصل الثالث... ٢٤
الفصل الرابع... ٣٤
الفصل الخامس... ٣٨
الفصل السادس... ٤٥
الفصل السابع... ٥٦
الفصل الثامن... ٦٥
الفصل التاسع... ٨٠
الفصل العاشر... ٨٩
الحادي عشر... ٩٨
الفصل الثاني عشر... ١١٠
الفصل الثالث عشر... ١٢١
الفصل الرابع عشر... ١٢٩
الفصل الخامس عشر... ١٤٢
" إهداء خاص"... ١٥١

❋❋❋❋